رواية

# أشباح الدور الأرضي

رابح بدير

الناشر
دار الآفاق العربية

obeikandl.com

بدير، رابـــح
أشباح الدور الارضي
ط 1 ، القاهرة : دار الآفاق العربية 2018
99 ص ، 20 سم

1- القصص العربية .

أ. العنوان 813

تدمك: 4 – 212 – 344 – 977 – 978
رقم الإيداع : 2017 / 27898
الطبعة الأولى
1439 هـ / 2018 م

جميع الحقوق محفوظة
لدار الآفاق العربية
نشر – توزيع – طباعة
55 شارع محمود طلعت من ش الطيران
مدينة نصر – القاهرة
تليفون : 00202- 22617339 تليفاكس : 00202-22610164

Emails: dar.alafk@yahoo.Com
selim.selim10@yahoo.com
daralafak2017@gmail.com
dar.alafk@Gmail.com

obeikandl.com

# "أنــت فــي وحـــدتك .. بلـــد مـــزدحـم"

**رفائـيـــل البيـــرتـــى**

obeikandl.com

obeikandl.com

# ( 1 )

يبدو أنهم نادمون، لقد رأيتهم من بعيد، ربما كانوا مجرد سربا من الجراد، هذا ما يجب أن أدركه، ليست هناك حكاية لأرويها عن الحشرات، فلازالت آثار السذاجة واضحة على ملامحهم كالندوب، كلامهم التافه، ورغبتهم في تعطيل آلة الزمن، ذات الكلام المكرر، إنهم خائفون، يقدمون قرابين الولاء لسادتهم، وبالعارهم لم يرتقوا بعد إلى أن يكونوا عرابين، بل جحوشا لا أهمية لها في هذا الكون.

صار المختبر جاهزاً، حمل الغوغائيون كلامك في أكياس، وفروا إلى أعمالهم الصالحة، وأداروه في ماكيناتهم، فخرج إلى الناس مناديلا ورقية وأغلفة للمعلبات، ونسبوا نزيفك إلى أنفسهم ، وتركوك يامولاي كما خلقتني.

أخيراً عثرت على عنوان روايتي في حلم شتوي، رأيت "فريال" حليقة الرأس تتشاجر مع جارتي العجوز "أم حامد"، وصحوت على ضجة في الشارع، وأدهشني بعد تلك السنين أنني لا زلت حياً، تأملت زرقة أطراف أصابعي .. انتبهت لصوت في الصالة، ورأيت كيس القمامة عائما في مياه المجارى.

اختفى الشبحان في غرفتهما، فتحت النافذة، ورأيت بعض الأطفال يمرحون فوق الجسر المؤدي إلى المقابر، ربما كنت في القاهرة، أولازلت أقيم في الإسكندرية، هذا التشوش جعلني أصدق أنني أشبه إلى حد بعيد المدعو "جلال متولى"، وأن تلك الظهيرة الشتوية قد حوت مجدا لهؤلاء الأوباش، وهم يزحفون في موكبهم الحاشد، ولا يعبأون بصوت الريح وزخات المطر.

انفلتت من رأسي أفكار بالية وساحة معارك، نزحت المياه خارج الشقة وانتصرت على أعدائي، كانت تلك طريقتي في التذكر، اعتاد حفار القبور ذلك

مع آلاف الجثث، ولكل منهم حكايات مؤثرة، وتتمة ما يصرحون به هو النقصان، يفتحون عيونهم برهة، ثم تختلج أطرافهم، ويتجاهل الحفار كل العلامات، فالجثث هي الجثث.

في الطابق العاشر، حملت الأوراق في ملف أنيق، يحتوي على لحظات شجن تافهة .. ثرثرات وجدانية .. كلام عن براكين ورذاذ مطر .. جيران أغبياء وسيدة تترفق بكلبها العجوز .. دور سينما ومسارح ومتاحف مغلقة للتحسينات .. بطل يصارع الأمواج .. مقرئ دافي الصوت يتلو سورة الرحمن .. مأثورات وشهود حمق .. زعيم افتراضي توسمت الجماهير أنه المخلص، وخيب رجاؤهم بطلته الرتيبة، وتعاطيه الافتراضي البليد مع الأحداث على تويتر، وقفزته الإنتحارية من المركب إلى قاع النسيان.

انطلق دخان السجائر.. قال صاحب الدار:

- أنت قرأت لي قبل كده ؟.
- لا..

صعدت الدماء إلى رأسه الصلعاء، نهض بقامته القصيرة من فوق الفوتيه، وجلس إلى مكتبه يحملق في شاشة الكمبيوتر .. وجدتها فرصة لتأمل محتويات الصالة .. أرفف الكتب والنياشين والصور المعلقة فوق الجدران.

لاحظت أن الرجل يميل في ملابسه للون الأحمر، ويدخن بشراهة، وأمامه كأس من النبيذ ..

رمقني صديقي "خيرت" بنظرات غاضبة وهمس:

- أنا غلطان اللي جبتك معايا ..

قلت لنفسي: هذا الرجل بداخله هواجس وحنين إلى عمله الأصلي، وربما يمارسه حتى الآن.

كان الطابق عاليا بما فيه الكفاية لتحريك الفوبيا، ولكنى نهضت إلى الشرفة لأرى النيل والبنايات العالية .. عساكر كقطع الشطرنج يمتطون صهوة خيولهم، ويطوفون حول سور دائري.

بعد دقائق .. عاد صاحب البيت ليرحب بنا .. حدثنا عن نفسه وتاريخه الحافل بالإنجازات .. وولعه بتربية الطيور .. سجله المشرف في سنوات الخدمة.. غرامه الملتهب بقطته العرجاء، ولمحت خادمة بدينة ترص أطباق الطعام .. خمنت أن هذا السكران يعتليها في أوقات فراغه.

قلت أن التجاويف الخشبية للراديو القديم تصنع صدى لصوت مغنية تركية، وأثارت حنيني لمشاهدة فيلم "أرض الخوف" .

لم تكن ملاحظتي بتلك الأهمية التي اعتقدها الضابط المتقاعد، ولكنه نظر إلى "خيرت" كي يتوقف عن الكلام، ويتدبر مغزى عبارتي اليتيمة في جلسة عمل غير متفق عليه.

obeikandl.com

## ( 2 )

كان مقهى" أبو صدام" بتاريخه المريب، يحتل شارعاً بأكمله، ولا يمكن تصنيف رواده في سلة واحدة .. أغلبهم باعة جائلين وكتاب وناشطين وقراصنة ثورات وبلطجية وعاطلين ووافدين من حارات ضيقة .. يقضون الليل في ثرثرة صاخبة، وربما يهدأون قليلا عند انطلاق آذان الفجر، وقد يباركهم "أبو صدام" بنداءات متفرقة، ويصيح بأسماء بعضهم، فيردون عليه بصياح مماثل، ولا يكف الضجيج حتى مطلع الشمس.

مرت السنوات، ولازال المقهى على حاله، دون لافتة .. مكان ضيق يتسع بالكاد لنصبة يقف خلفها عامل، وفي الغالب يكون "أبو صدام" نفسه، وترتص بجوار الحائط صناديق المياه الغازية.. بعض النراجيل .. فاترينة مضاءة وداخلها علب سجائر .. بواكى معسل وبسكويت .. وطوال الليل يحمل الجرسون الطلبات إلى الجالسين فوق مقاعد متناثرة بطول الرصيف المقابل، وفي الخلفية محلات مغلقة.

لا يظن أحدكم أن المقهى يغلق أبوابه في الصباح، بل تنسحب المقاعد والمناضد من فوق الرصيف، وتستقر فوق بعضها في ركن بجوار بابه، بعد العصر يهل" أبو صدام"، ولا يبدأ احتلال الرصيف مرة أخرى قبل انتصاف الليل.

قد ترى "أبو صدام" بكرشه الضخم وقامته الطويلة، يسير حاملا أرغفة الخبز الساخنة وكيس الفول وقرطاس الطعمية الساخنة، ويتسلم وردية الصباح عامل نصبة وجرسون آخرين، وتفتح أبواب المحلات، وتدب الحركة في الشارع.

سيرة غريبة لمقهى يشاع أن صاحبه مرشد للمباحث .. قتل ابنه عن طريق الخطأ، ورواد يزدادون صلفا وضجيجا .. يتراشقون بالسباب، ولكن بعض الجيران اعتبروا المقهى جزءا من طقوس ليلهم، ومبعثا للونس، ولم يتحرك أحدهم غضبا أو رفضا للضجيج، كما كفت عربات الشرطة عن التوقف أمام المقهى والقبض على المشتبه فيهم.

وحتى الآن لا أدري ما مصير الضابط الذي وقف ذات ليلة بسيارة الشرطة، وطلب من "أبو صدام" أن يغلق مقهاه، وصرخ في الجالسين:

- أنتم صيع معندكوش شغل الصبح ؟.

obeikandl.com

## ( 3 )

كان رواد الفضاء يلتقطون الصور والأفلام الوثائقية، وأصوات الأوباش، ويسجلون تلك اللحظات للتاريخ، وظن الغافلون أن الحكاية انتهت، الحقيقة أنني لا أتذكر شيئا من تلك الأحداث، الصورة غائمة، قلت لصديقي كلمات تافهة عن الأشرار، وتمنيت أن أراهم على الشاشة، لأبصق عليهم دون خوف، أما الحمقى فلن يكون لهم وجودا بعد الآن.

كان لابد من حراك آخر، وعلينا ألا نستبق اللحظة، ونوفر كل طاقتنا للهزائم المقبلة، وتلاشي البطولات الزائفة، الصعاليك ورعاة الأغنام والثيران الهائجة، وسطوة المتوارين خلف النوافذ، الحقيقة لم يفكر أحد ما الذي يفعلونه، كانوا مثل رواد فضاء عالقين في كوكب بعيد.

عندما دخل "جلال" إلى شقته بالدور الأرضي، استقبله شبح أربعيني متوسط القامة، ويزحف الصلع إلى منتصف رأسه، وبجواره طفلة عيناها تلمعان بالوعيد.

في تلك الليلة ..عزمت البحث عن الفكرة الرئيسية في دفتره المتهالك، الأيام المندسة في شراينه.. "جلال متولي"، (**أي تشابه في الأسماء غير مقصود**).

كانت بعض الصفحات مطوية على كلام مثل "المجنون يعلق سترته في نافذة المنور .. استدارة امرأة لمن يغازلها مبتسمة .. أغلقت حسابي علي الفيس بوك .. دعهم يفترضون أنك قد مت خارج عالمهم الافتراضي الموبوء بالكذبة والنصابين والعاهرات .. دعهم يخرجون من جحورهم ويهرتلون بعد 25 يناير .. أدعياء وفاسدون جدد وقراصنة ثورات وحالمون ومغفلون وكل من له نبي يصلي عليه".

بالله عليك يا "جلال" ما كل هذا الكلام الغامض .. أنت تفرق المجاز كالسجائر وأكواب الشاي، هناك ضيوف أعزاء يريدون التمتع بالنميمة، وبينهم أرذل خلق الله.

ما أجهله بالكواكب والفلك وقراءة الطالع، ما أجهله بمغزى سيريالية زعماء ونشطاء هذا الزمان، الواحد منهم يملأ الشيب رأسه وتحرسه التجاعيد كمخبر غبي ولا يخجل من الكذب الصريح.

رتب "جلال" ملابسه في الدولاب الخشبي.. لازالت الكتب والأوراق مكدسة في أكياس سوداء .. جثث تنتقل معه من مسكن إلى آخر .. ولا يرغب في التنصل منها .. على الأرجح كان يتسلى بها في الأوقات العصيبة.

اختفى الشبحان في الغرفة الأخرى، وبمرور الوقت تآلف مع وجودهما الآمن، وقياسا بعدد السجائر التي يدخنها ساوره الشك أن الشبح يدخن، وغالبا كان يفتح باب القبو ليطرد سحب الدخان.

عبر الهاتف أخبر "فريال" بهواجسه، لكنها فقدت بصيرتها في الترجمة الفورية لأحلامه، وقالت أن فكرة الرسائل ستعطيها الفرصة للكتابة اليومية عن أحلامها وحياتها المملة، وربما يمنعها ذلك من التفكير في الانتحار.

تعرف "جلال" على "فريال" منذ شهور قليلة، كانت ملقاة على مقعد في مقهى "أبو صدام"، مشيا في شارع "البحر الأعظم"، وجلسا في أماكن متفرقة، "فريال في المقهى، في المترو، في المؤسسة، بلعتها دروب متعرجة.

كل "فريال" تغني علي قيسها، تميل حبتين إلى الذكريات، وترجع مجبورة الخاطر، أو مهيضة الجناح مثلا.

ولهذا لا فرق بين "فريال" و"فريال" إلا باخلاصها إلى حب لم تجربه، أما الذي جربته فمرهون للظروف كالتداعي على الورق، كرؤيتها للعالم من حولها، واصرارها على أنها الأذكى والأجمل والأفضل سبيلاً.

قال "جلال" لنفسه: يا أخي من الممكن أن تختفي "فريال" وتظهر "فريال" أخرى.

تفرق هواء ضعيف على الشرفات، وليس هناك أنفاس تعاند حظر التجول .. بالفعل كانت لحظات نادرة دفعته للمشي خطوات ناحية السوبر ماركت، وربما أبعد. التاسعة طعنة في ليل أغسطس الرطب، تلك اللزوجة التي تؤكد كراهيته للصيف.

ضوء أصفر يغمر الشارع الخالي، ضجيج مباغت لعربة توك توك .. نباح كلب .. صيحات أطفال .. دوي طلقات، ولا شئ غير الانتظار.

بالطبع كانت هناك حياة، دلت عليها متعلقاته الخاصة، هويته، ايصالات الكهرباء والماء والغاز وملابسه وأوراقه، كتبه المعبأة في أكياس، عنوان مسكنه، ألبوم الصور، مقهى "أبو صدام" وأضواء وصديقات وأصدقاء.

obeikandl.com

## ( 4 )

**"أي شئ في العيد .. أهدي إليكِ يا ملاكي"** مثل "هاملت" سيكرهكِ إبنك، عندما تقذفين به إلى ملجأ أيتام، أو يضيع منكِ في متاهة المخدرات ..ولد صايع ابن كلب .. وأمه سيدة مخلصة للتعاسة ..أما أبوه فقد وهب نفسه لكل المراحل ..ولابأس أن يتغنى بالتوريث ويصير دون خجل من عتاة الثوريين بعد سقوط نظام مبارك.

حكت "فريال" عن الليلة الأخيرة مع زوجها، وكيف رمى عليها يمين الطلاق ولم تجد مكانا تبيت فيه، وذهبت إلى "حي الحسين"، تنقلت من مقهى إلى آخر حتى طلوع النهار، ثم ذهبت إلى مقر عملها، وانكفأت رأسها على المكتب، وتركها زملائها الذين يعرفون الحكاية، وابتسم بعضهم في شماتة، لتفيق على اتصال من السمسار، وتخطف حقيبتها وتمضي إلى مسكنها الجديد.. وهناك خرج من أحشائها كائن ذو شفة أرنبية.

لم يقتنع "جلال "برواية "فريال" عن ليلتها الأخيرة، فقد عرف أن لها أشقاء يسكنون في أحياء متفرقة بالقاهرة، ولها خالة تسكن في شبرا، ولكنه اعتبر أن الكذب الذي مارسته لا يخلو من حقيقة مؤكدة أنها سيدة عصامية، ومن خلال كفاحها بأعز ما تملك ربت ابنها وجلبت أمها للعيش معها، وتنقلت من سكن إلى آخر، حتى استقر بها المقام في ضاحية نائية.

لعل "جلال" فوجئ بوجود جدتها فوق كنبة الصالة، ولكن الأمر لم يثنيه عن معرفة تفاصيل أكثر عن زيارتها لطبيب نفساني مغمور، وترددها على طبيبة غدد صماء، ومكالماتها بالساعات مع نساء ورجال، وإدعائها أنها قادرة على الحياة بدون زيجة أخرى.

منذ عشر سنوات أتت "فريال" بأوراق مهملة، قالت أنها كتبتها أيام الجامعة، ومشيت مع "جلال" على الكورنيش، وبدوره تركها تثرثر عن مشاريعها المجهضة، كانت تكتب عن الحب وتتجاهل رصاصة الرحمة المصوبة إلى عصبها الحائر، رجل تجهز له الحمام والإفطار وتغتسل من غزواته الليلية.

يالجسدكِ المستبد بترهلاته في استرخائه فوق السلم الرخامي، بنطلونك الأبيض المحبوك علي فخذين جائعين، علاقاتكِ المريبة، واختفاؤكِ المشبوه.

المطلقة ألقت بسنارتها في بهو الأوبرا، أي شتاء سيمضي بعفن رغباتها المكبوتة، وضلال عفتها، انهيارها بات وشيكاً بظهور شيب رأسها وتجاعيد وجهها وكرمشات ثدييها المترهلين.

خلسة رأى "جلال" كل شئ، وطواعية قبل شفتيها المحمومتين، وتبادلا أنفاس سيجارة واحدة، والتصقا في مقاعد متفرقة بطول الأيام التى قذفت بها في طريقه، ولفظتها خائبة بسنارة فارغة.

**عزيزتي "فريال"** .. الحكاية اتلخبطت .. هناك أشباح خرس وجيران متخلفين .. انفجرت ماسورة المجاري .. أوغاد يرمون القمامة في مدخل العمارة .. بلطجية يسطون على شقق سكنية .. وآخرون يعلون طوابق عماراتهم .. من فضلك يا "فريال" لا تبحثي عن مقدمة للأحداث، إبدأي من المنتصف أو النهاية، ولا تشغلين بالك من أين بدأت تلك الساقية، ودارت بثور معصوب العينين، فقط تذكري أيامه السيئة والطيبة.

كان ضروريا أن تتحكمي في مستوى الصوت وأنت تضعين السماعات على أذنيك، وتحركين الماوث وفق ما تريدين من المشاهد، سميها كما تشائين ولكن لا تلعني الظروف التي دفعتني في طريقك ، أو كما قال "صمويل بيكيت"( أنت على الأرض، لايوجد علاج لذلك).

يا "فريال" أية بداية تبحثين عنها، لقد كلمتك بالأمس عبر الهاتف، ودار بيننا نفس الكلام الذي قلناه منذ أيام، عبارات حارة وكلمات غزل، وسؤال عن الأحوال وثرثرة تافهة، ما الجديد إذن؟

ربما تنسين أو تتذكرين بعض ما فات، وتبقى البداية لقطة خاطفة في النيجاتيف المحروق.

ماتت بنت الكلب .. قال "جلال" أن "فريال" لم تحب إلا نفسها .. يالذكريات البعيدة عندما تستبد بمحتضر ، مقهى في شارع جانبي، تقف عند بابه قوادة وفتيات تفرقن على المناضد كالذبائح.

ذات يوم اصطحب واحدة لمدة ساعتين، ضج المكان بشهوات مكتومة، وحين همت بارتداء ملابسها، قالت:

- عندي صديد على القلب ..

سألته عن أقرب صيدلية، كانت امرأة نحيلة في نهاية الثلاثينات، وبشرتها الخمرية مليئة بالنمش، ولايتذكر الآن كيف جلبها إلى القبو، فقد مضى على هذا اللقاء أكثر من ثلاثين سنة.

ليست نهاية إذن أيتها العابرة، ستأتين مرة أخرى بقلب معطوب، وتشتعل الهلاوس، وتنمو زهور فوق شرفات الأحبة، ويكتب الكاذبون والكاذبات رسائل الغرام، ويستمتع "جلال" بالتدخين أثناء العرض المسرحي، يتناثر قشر البرتقال والفول السوداني، تمتلئ المنفضة بأعقاب السجائر، وتظل الأطباق وعلب البيرة الفارغة فوق المنضدة حتى صباح اليوم التالي.

قد ينفرج الحدث ببعض المسرات، ولكن الحر يكتم على أنفاسه بأخبار سيئة، مسافة طويلة ستقطعها سيارة الإسعاف في قلب الحرائق والمظاهرات.

مسكين "جلال" .. كان يلزمه في الشتاء القادم سجائر وبطاطين وشاي وسكر..

كان يلزمه استيفاء الحكاية بذكر القلوب المطمئنة.

obeikandl.com

## ( 5 )

كانوا يبدون قدرا من الحماس، والمغالاة في تقدير ذواتهم المريضة، وأظهروا كثيرا من التسامح، وطهارة اليد، وأقنعوا أنفسهم بأنهم ملائكة بلا أجنحة، وفي واقع الأمر كانوا كلابا بلا ذيول، والراصد لإنفعالاتهم الرخيصة، سيدرك أنهم لا يختلفون عن سابقيهم، وإن كان السابقون على درجة من السوء الممنهج، فهؤلاء الأوباش أقل رفعة منهم، وليس نباحهم المتصل، سوى تعبير عن السعار.

تلك الكراهية عنوان النص المحذوف، وبعدها ستكون القراءة مثالية، فلنؤجل الإعتراض حتى ينتهي الصخب، وعلينا أن نتجول في هذه الرقعة من الشمال إلى الجنوب، وتخطو أقدامنا فوق رصيف المحطة، وحين نستقل القطار، سنجد هناك وقتا للأساطير، وتبادل الحكايات اللطيفة، فعلينا أن نستمتع بالرحلة، وهذا فرض عين.

من أجلك يا "خيرت" صنعنا الكيك واشترينا اللحم والفاكهة، أعددنا العشاء لتملأ بطنك الخاوية منذ صباح الرب.

جئت إلينا خاوي الوفاض، صرت لحما وشحما، وأغلقنا اللاب توب على شخصك الإفتراضي.

أنت أقسمت أمام العائلة بصون العفيفة الشريفة ذات الحسب والنسب، لم تهتم بغياب غشاء عفتها، وكانت وش الخير التى أطلقت بين جوانحك آيات الطموح، وصرت عاليا .. عاليا، وهويت فجأة.

دونت تغريد على صفحتها مقتطفات من قصتها القصيرة مع المرحوم، ولعنت في سرها اليوم الذي رأته فيه، وعادت إلى الفيس بوك ترتدى ثوب الحداد، تبحث عن الذي كان وأيامه الخوالي.

استعاذت بالله من الشيطان، وتلاعبت أناملها فوق الكيبورد، رحمة ونور ونميمة وجوع أفقدها التوازن بين الطامعين والطالبين القرب، وصورة المرحوم المعلقة كلعنة.

بعد سنوات جلس المرحوم "خيرت" حزينا في ركن الصالة ..

قالت ابنته لخطيبها أن الله عوضني خيراً بأمي، ثم زفرت في شموع التورتة، وصفق الملتفون حول المنضدة الدائرية.

كانت "تغريد" التى كسا الشيب رأسها، قد أخفت دموعها في منديل حريري طرزته أيام شهر العسل في الإسكندرية، واختلست من الضيوف دقيقتين لتكتب رسالة على صفحتها إلى حبيبها الغائب.

وعلى سبيل المحبة قبل الشبح شفتيها وطار من النافذة.

كان المرحوم "خيرت" من الرواد الدائمين لمقهى "أبو صدام"، وهناك يمارس هواية الكذب كتدخينه للنرجيلة ونهمه للطعام، وقال لي مرة بصدق أنه خضع للعلاج النفسي وشفاه الله من الرغي الكاذب.

كعادته كان لايخشى من إفشاء الأسرار، فحياته مكشوفة لكل معارفه، بل أنه يتعمد الإفصاح عن أشياء يراها الكثيرون خطوطا حمراء، ربما لم يستهويه "برتولد بريخت" ككاتب مسرحي شيوعي، ولكنه حاول استعارة مذهبه في عدم الاندماج، وأراد أن يرمي عن كاهله بعض التفاصيل الدقيقة في حياته مع ذوات الحسب والنسب.

تلك رواية أخرى بدأت من أصوله الريفية، ورغباته الدفينة في تغيير جلده، والتعالي على الفقراء أمثاله، وظن البعض أنه سليل باشوات، وهو يصف ثورة يوليو بالانقلاب، ويرى أن العهد الملكي كان من أزهى عصور الحرية، ولهذا

دافع "خيرت" عن أفلام مخرج الروائع حسن الإمام، واعتبرها نبض مصر في الثلاثينيات والأربعينيات.

تغاضى خيرت عن أن مصر كانت محتلة، وتمتع بسيل من المتناقضات، وامتلك فراسة مدهشة في قراءة ملامح الوجوه، وفي أواخر أيامه قام بمراجعات أنصفت "جمال عبد الناصر" الذي لم يعاصر حكمه، واستقى معلومات عن عهده من مراجع منحازة لـ"السادات".

كان "خيرت" قد عقد قرانه الأول ولم يحن بعد موعد الزفاف، وبدا سعيدا بغزوته النهارية التي دلت أن العروس ليست عذراء، كان مدركا أن المستمع لن يعقب بشئ، وحين عاود الكرة مع عروس أخرى سرب معلومة مماثلة، وكأنه تخصص في فاقدات العذرية قبل الزواج.

بعد رحيله بأيام، أخذت الحمية "تغريد" وكتبت علي صفحتها في الفيس بوك أنها لم ولن تحب أحدا مثل المرحوم، حتى لو كان لها نصيبا مع مرحوم آخر.

كان "خيرت" واقفا في الشارع المجاور للمحطة .. لم يتغير كثيرا منذ تركته قبل سنوات في مقهى "أبو صدام" .. كعادته قابلني بحفاوة، اقترب الجرسون

- اتنين شاى وشيشة ..

أطلق الدخان من فمه، وانشغل باللعب في الموبايل، ثم ابتسم وكأنه لا يراني وقال :

- بنت الكلب مطمرش فيها المعروف ..

طلب من الجرسون أن يغير النرجيلة، وبعدها اختفى فجأة، وتذكرت أنه ليس بيننا الآن.

توقفت عند بعض فقرات من رسالة إلى "جلال" بتوقيع خيرت "تأكد يا أخي من وجود التليفون والمسجل وأنبوبة البوتاجاز، وإذا كانت العصافير ماتت، لفهم وارميهم بعيد" .. وتخيلت أن "خيرت" جعل "تغريد" تتمدد على مجرى رئتيه، وهذا الخطأ لا يمكن تداركه إلا بالقتل العمد.

ماذا يقصد هذا المجنون بتلك العبارة المتآكلة "اختل توازني أثناء اغتيال أنسجة العنكبوت، ونثر رمادي في سماوات القرى والمدن الظالمة.. مرحلياً سأكتفي بحق الدخان وأثير الرأي العام ضد رائحة الدجاج وغباء صاحب المزرعة".

هذا الفاصل يستدعي تمزيقه في نهاية السهرة، والإنتباه لوقع أقدام في مدخل البيت، وتصاعد مواء القطط، ونباح الكلاب، وارتطام الأواني في مطبخ الجيران، وترقب شيئا ما قد يحدث، وفكرت أي الأسلحة استخدمها مع هذا اللص البائس، وتملكني هاجس أن ينتهي النص عند هذا الحد، ويموت المؤلف.

راودتني تلك الفكرة التشاؤمية، حين أدركت أن هذه النوعية من الكتابة، لا تستهوي هؤلاء الفارين من اضطرابهم البين، ولا يعترفون بحاجتهم للعلاج في المصحات النفسية، وبالتالي لا يمكن بأي حال، أن يقدروا تلك الخطط التي أعدها مؤلفهم سلفا، وينفذونها كأشباح هائمة في عاصفة الإضطراب.

## ( 6 )

للإسكندرية زوابعها، قتلة ومجانين وسكارى يطوحهم الليل إلى منازلهم البعيدة، تكتكات ترام باكوس، ووجهك الملتصق بالنافذة، وشظايا الضوء تفر إلى عتمة شوارع جانبية، رقصة المطر على الكورنيش، وسيل الأمواج الصاخبة، وسكرة اليود في شرايينك، وبهجة الفل بين أصابع فتاة تراوغ السيارات المارقة، فلتتذكر إسم الشارع ومدى إقترابه من البحر، وكم شهرا سكنت فيه، ربما اعترافات من هذا النوع، تنشط ذاكرتك، وتتدفق دون لف أو دوران.

سنوات مضت، ولا فرق أن يجرفه الشتاء إلى حنين غامض، أواعتذار من امرأة عن لمستها الطائشة، وكان موقفاً أشد من القتل، وهي توسع دائرة النظر عبر اتجاهات الممر، وتختفي في مدخل جانبي، وتساءل "جلال": هل سيحاسبها الله؟

سرير إضافي ملقى عليه بعض الملابس، ونافذة تطل على المقابر، وهواء يشي بقرب البحر، وفي غمضة عين، اتسع الخلاء أمامه، وسرى صوت "فريال" دافئاً، وتحرك ظلها بين عتبة البيت والطريق الترابي، وحينها فتح ذراعيه واحتضن الهواء، أطل وجهها خلف قضبان النافذة، وصرخت: سايبني كل ده؟.

حكت "فريال" عن عام آخر رعت فيه الواجب المقدس، وتزعزعت ثقة "جلال" في كلامها عند منتصف "كوبري عباس"، حين اختزلت قصة هروبها مع زميلها في حب من طرف واحد، ورجال يرغبون في اغتصابها.

في تلك اللحظة سكعها "جلال" على قفاها على سبيل المزاح، وأكد لها أنه لا يتورع عن ضربها بالشلوت في الشارع، وأنها مازوكية رخيصة، المثير أنها غالبت البكاء وصمتت حتى وصولهما إلى ميدان الجيزة.

كانت تدرك أنها ستهزم أمام ساديته، وهناك وقفت مبتسمة كمن تفكر في قتله ومدت يدها لمصافحته، قال لها أنه يرغب في احتضانها الآن، وتحدته أن يفعل، التصق بها كأنه يحثها على السير واعتصر ثنيات خصرها.

أدرك أنها إذا اختفت لن تظهر ثانية، واقترح عليها أن يحتفلا بالوداع في يوم آخر، وحتى الآن لم تظهر "فريال" ولازال "جلال" ينتظر.

لو كان "جلال" الذي مات قد ذهب إلى مقهى "أبو صدام"، وجلس مع أصدقائه يدخن ويشرب الشاي، لأطلت عيناه على البنايات العالية، ورأى كوكب زحل يختطف العرائس المتهاديات في بداية الليل.

هذا المقهي بالذات فضاء مسكون بحوريات يخطفن أبصار الجالسين.. قيل أن تنهداتهن تصعق أصحاب القلوب الضعيفة، فكم من مرة خف عقل أحدهم، وهوت أجسادهم فوق الرصيف.

بمرور الوقت اختفت الحوريات، ووطأت الأقدام شظايا التراشق بين صبية على جانبي الشارع، واندلعت مشاجرات سائقي التوك توك، واصطف طابور العربات أمام محطة البنزين، وانطلق لغط الجالسين وسبابهم للمسئول عن أزمة السولار وانقطاع الكهرباء.

لو كان "جلال" قد ذهب إلى المقهى، لرأى الحاوي النحيل يصحب زوجته وطفليه، ويستهل إطفاء شعلة النار في جوفه بنداءات منغمة يرددها خلفه الطفلان كالصدى، ويدوران بالطبق على الجالسين، وارتمى كسائر الأشباح المتعبة فوق مقعد على الرصيف، وانتظر مرور "فريال" كمتربص بعابرة.

## ( 7 )

كانت الخطايا عاصفة .. لطخت العناوين الرئيسية بقايا الطعام .. تسارعت الأحداث في الشارع .. معارك بالسنج والمطاوي .. دوي طلقات .. اعتصامات وحرائق .. مليونيات في ميدان التحرير وأمام قصر الاتحادية ..

ماذا لو ضاعت ذاكرته فجأة؟ هل سيتوقف عن المشي أم يخرج بطاقته ويقرأ اسمه وعنوانه، ما هذا الهزل؟ أربع .. خمس سجائر في علبة زرقاء.. بضعة جنيهات .. حافظة نقود.. سلسلة مفاتيح وموبايل وكيس مناديل ورقية وولاعة، و شلالات ماء تندفع من سموات بعيدة.. أطفال تطوحهم المراجيح .. رائحة ياسمين تعطر الشارع .. ضوء يتراقص على جدار بيت من طابق واحد، وليس هناك أهمية ليتسلق أوهامه إلى نافذة مغلقة.

دخل "جلال" إلى القبو بعد منتصف الليل، لم يرى الشبحين في الصالة، خلع حذائه وألقاه على بابها المغلق، صارت غرفته مقلباً لأمتعة وكتب وأعقاب سجائر ومخابئ سرية لفئران .. هؤلاء الأغبياء يرقبون دخوله المتعجل من البوابة الحديدية .. هذا الوجود هنا أم هناك؟ .. الإسكندرية أم القاهرة؟ كان الأمر بسيطا فهو لا يميل إلى "أمل" .. ونفضها من ذاكرته بسرعة ..

" واحده عملتلي عمل على الأرض والحيطان " ..

استيقظت القاهرة على ضجيج أغاني الراب ..

لفح ديسمبر إنذار باضطراب المناخ .. انتبه "جلال" إلى صوتها المرتعش بالرغبة وهلع الأنثى المخطوفة إلى الأربعين .. عرفها قبل سنوات .. امرأة مستكينة في انتظار المدير ..

قال لها: هذا "جلال" الذي لا يعجبه كتاباتك ..

اهتز كوب الماء بين أصابع "أمل" .. ابتلعت قرصا كبير الحجم .. زامت في خفوت .. انتزعت منديل ورقي من العلبة، ورمقته بإبتسامة صفراء ..

انقطعت المفاوضات ولاذا بالصمت .. قامت من مكانها وجلست فوق ركبتيه وطوقت عنقه وفح صوتها:

- وافق متبقاش راسك ناشفة ..

مزيد من التفاصيل في ليلة تالية.. كانت الواحدة صباحا عندما انتهت "أمل" من الكلام عن أبيها .. قاطعها "جلال" وهو يرتدي السويتر:

- أنتي ماحبتيش حد غير أبوكي ..

تجمدت في مقعدها .. أشاحت بوجهها، ولم تقف كعادتها لتودعه عند باب الأسانسير..

رأى "جلال" نوافذ مضاءة وجنود حراسة يتجولون بخطوات منتظمة .. أدرك أنه لن يعود إلى هذا المكان مرة أخرى .. لن يرى قرب الفجر تلك الشوارع الخالية. انطلق التاكسي إلى كوبري "الملك الصالح" .. تركها في الطابق الثالث تبكي بحرقة على أبيها وتبتلع مزيدا من الأقراص.

الأرستقراطية النحيلة التي تعرف عليها منذ ثلاثة أشهر .. حدثته عن كوخ في جزيرة نائية .. سفرها إلي "لندن" للعلاج من صدمة عصبية، وفي كل يوم تتسع المسافة تحت ثوبها الأسود .. تتنهد بارتياح وتنطلق إلى الحمام ..

لم تظهر "أمل" ثانية لتضغط بالشلته الوردية على فخذيها النحيلين .. وتلمع عيناها وتوصله حتى باب الأسانسير .. تلك المرة ذهب "جلال" بلا وداع يليق بامرأة أرادت أن تكون العصمة في يدها.

أفكار هزيلة صاغها مؤلف بائس .. هذا الكائن يندفع في الزحام .. يكتب عن أشباح في الدور الأرضي، وشوارع ونساء وشخص وحيد ..

ماذا بعد أيها المؤلف؟.

هل حقا هناك رائحة كبريت في الفاكهة؟.

هل قاتلت الفئران ونجوت من الطاعون ؟.

هل ملأت الجثث مقهى "أبوصدام"؟.

تمنيت أن تعالج الأمر بشيء من التهور .. وتخطف الموبايل من الرجل الأصلع وتقول لـ"فريال": حج مبرور وذنب مغفور ..

اكتب أيها المؤلف عن أشياء أكثر كذبا .. عن أعظم العابرين في التاريخ، وابتكر نظاما جديدا لإضاعة الوقت.

يا "جلال" من الأفضل أن تعيش تلك الحكايات في اندثارها، ولن يجد ورثتك صعوبة في التخلص منها ..

الماضي في الغالب ليس ملوناً .. الأحلام وحدها .. الأحلام التي لا أستطيع كتابتها، ولا تكف عن مخايلتي بأماكنها الفاتنة .. بدأت بحديقة عند النهر، وتتابعت المشاهد .. بحر أراه من شارع جانبي .. ألم أقل لك يا "جلال" أن اصطياد تلك اللحظات غاية في الصعوبة .. منازل أسطورية .. أغنيات لها رائحة الشتاء .. امرأة تترك دفء ملمسها بعد اليقظة ونشوة عناقها تصاحبني طيلة النهار ، وحين بحت بسرها اختفت، وتعلمت ألا أحكى سوى القليل من رؤاي وكوابيسي .. تعددت التفاسير ، وكلما تقدم العمر أدرك أن الباقي هو الأحلام والأشياء التي ذهبت إلى هناك وتحطم الجسر.

صديقي العزيز .. كل شيء على ما يرام .. فقدان التوازن الذي يصيب الفقراء بلوثة المجاذيب .. هيستريا لعينة.. قلب معطوب .. ميزان جائر .. قطارات مغادرة .. طريق يوصلك ببحر .. خرقة المحبة .. رصيف المقام .. أرواح قديمة .. رائحة الجثث .. بعض المسرات .. حافة فراش.. نظرة حب .. خطورة المسألة.. موتى الملل.. شعوب يتيمة تقوض خيام العزاء .. ارتباك

الخمسين .. شهوات مطفأة .. نزف الطغاة .. امرأة جاءت للقتل .. مخلوقات من طين وعفن .. سكير يشطح أمام تمثال "سيد درويش" في حديقة "الخالدين بالإسكندرية" .. مدينة ترعى العاهرات والمجانين .. أرداف ثقيلة لنساء متآمرات .. أرجو الاطمئنان عليك يا "جلال" ..

obeikandl.com

## ( 8 )

عدنا مرة أخرى إلى مقدمة الأحداث، كان ينبغي أن أدقق في الأمر، السيدات والسادة يطلون عبر الفيس بوك دون خدش واحد، وبدم بارد يتصايحون ويثرثرون عن حب الوطن، هذا التشويش كان كافياً، خمسة أيام يا أولاد الكلب دون أن يطرق الباب أحد، ألا تزعجكم الرائحة أم أنها نأت بكم عن مسرح الجريمة، وماذا بعد يا "جلال"؟ أين ذهبت "فريال"؟ أليس لك عائلة ومجد وقطط جائعة؟ انحرف قليلا بالمؤشر، واتركه مثبتا على وجهها، علام هذا الضجيج إذن؟ هل قتلتها أم قتلتك؟ فرت منك أم فررت منها؟ هؤلاء العازفون يرقبون دخولك المتعجل إلى الممر، ويرفعون أقواس الكمنجات، تأهباً لعزف جماعي يليق بسيد المكان.

تدرج "جلال" في الزمن، خطوة تلو أخرى، واستراح على جنبه الأيمن، ومد أصابعه ليحرك مؤشر الراديو، كيف يعيش هذا المغفل بتلك الذاكرة الضعيفة؟ ولماذا "فريال" بالذات؟ أيامه الشاردة مع أول لقاء في حضرة الشهود، غشاوة عينيها الكاذبتين، جاءت لتحتضر على رصيف الكورنيش، وتدلي باعترافاتها عن ماض لا يخصك، اقتلها قبل أن تقتلك، كل هذا غباء يا مسكين؟

- تشخيصك إيه يا دكتور؟

خرس طوعي مصحوب بالتواطؤ مع الحالة، هذا الكائن يشغل حيزاً في الفراغ، ويستهلك بعض الأطعمة والأدوية وعلب السجائر والمسكنات .. وينغمس في بعض الأشياء التافهة، وكان فقده سريع الذوبان في أكواب الشاي وفناجين القهوة ومنفضة مليئة بأعقاب السجائر، ولذكرياته نفحات وعلامات شاردة، قالها للأيتام والكسالى والمجاذيب، قالها للمتيمات والعابرات في

طريقه، قالها ليشهر من لا شهرة له، وإلا بالله عليكم كيف سيكون رسمه بعيدا عن زحمة العارفين؟.

ظن "جلال" أن الحكاية بدأت، فأشعل سيجارة وجلس يتابع عازف الربابة، وبعد لحظات حرك المؤشر ناحية التوقيف، والعازف يرفع ربابته عاليا، وقد تشنجت ملامح وجهه، وظهرت يد راقصة ترتدي أساور فضية، فأعاد التشغيل مرة أخرى، واكتمل ظهورها بجسد يتلوي خلف جلباب ناري، وتصاعد الصوت بغناء قصيدة المتنبي"الليل والخيل والبيداء تعرفني" والراقصة تتمايل أمام الكاميرا، والضوء يتربص بعينيها الغجريتين، ومساحيق وجهها الخمري.

بعد لحظات، أخفض الصوت تماما، وثبت اللقطة على عينيها الشرستين، ونهض ليضع الكنكة فوق السبرتاية وتذكر أن هناك شرط جزائي، ولا يجوز أن يفسد متابعته للمسرحية، لمجرد أن ممثلة خرجت على النص، وانتظرت تصفيق الجمهور، وبعد أن أطفأ سيجارته، أخذته سنة من النوم، ورفرف منتشيا بدمائه التي خالطت موج البحر، وحلق في الأعالي، وهرول بروحه إلى رحيق أنثى تجفف شعرها وتتمايل خلف نافذتها المغلقة.

لم يكترث أين هو بالتحديد وفي أي زمن؟ وهل فاته الكثير خارج القبو؟ هذا الكسل جعله يغلق النافذة، ويوصد الباب جيدا، ويتمدد فوق فراشه والمصباح مضاء، ولا يقلقه سوى حاجته لإفراغ مثانته، وبعدها يكمل ما انقطع من الحكاية، ولكن رغبته في التدخين، لكزته ليفيق، ويلتقط كسرة خبز ويغمسها في برطمان العسل، ويشعل أول سيجارة في هذا الصباح البعيد.

أدرك "جلال" أن بعض كائنات الفيس بوك مدمنين في خمارة وهمية.. ملامحهم تشوهت كالزومبيين، وعدوانيتهم ميئوس من شفائها.. هكذا تسلل إلى شرايينه كرهه للعالم الافتراضي كالسم البطيء.

ربما لا يتسع المجال لذكر الأعداد الوافدة إلى العالم الافتراضي ..في هذا الأفق طارت عدسات صديقه "تاشو" الموظف المحترم، وهرعت زوجته إلى المطبخ، وشوحت في وجه بالسكين ..صرخت ولولوت ودعت عليه بالموت، وخرج الأولاد من غرفهم، وتسمرت عيونهم على شاشة الكمبيوتر.. ماذا فعل أبوهم حتى يتعرض للقتل من امرأة على مشارف الستين.

اختفت صفحة "تاشو"، وكان قتلى الفيس بوك يتضاعفون، وانتهي "جلال" من كتابة قصة تدور حول "تاشو" الخمسيني الذي طلق زوجته وحكايته مع امرأة في الثلاثينات من العمر تفكر في الطلاق، ويلتقيان كل ليلة عبر الشات.

بعد حوار طويل امتد لشهور، التقيا وجها لوجه، فاكتشفا معا عمق حاجتهما إلى بعضهما، ولكن لأنهما أدمنا العالم الافتراضي فشلا في التواصل خلال لقائهما الأول، وفي جلستهما الثانية اتفقا على التحدث عبر الموبايل، والعودة من جديد إلى الشات، وهناك تكتكت أناملها على الكيبورد، وأخبرته أنها بصدد الذهاب إلى طبيب أمراض نفسية وعصبية، وفي اليوم التالي اختفت صداقتها من صفحة "تاشو".

في كل ليلة تبدأ المعارك ولاتنتهي .. تتناثر الأشلاء، وتمتزج دماء القتلى، وكلما فتح "جلال" صفحة الفيس بوك تهل رائحة الخراب، وتنهض أشباحهم للقتال الافتراضي، لا أحد ينتصر ولا أحد يُهزم، حتى "جارديانا" الجميلة التي أطلت بوجه مضبب على شاشة الكمبيوتر ، صارت مملة، ومجرد صورة لفتاة مبتسمة ترتدي زي بلادها وشعرها ينسدل علي ظهرها، ولن تقتحم عليه الشات مرة أخرى.

انفض مهرجان الأغاني، قصص الحب ووصلات الغزل، حوار امتد لشهور، من الأفضل أن يبقى عالقا هناك في صندوق الرسائل.

الأيام تمر متكاسلة، ربما كان كاذبا ومدعيا منذ أن ولدته أمه، كل هذا الهذيان عن الأخلاق والشرف والفضيلة، لا يصدر من الشيطان نفسه، ثمة وجه آخر يعرفه جيدا، يحفظ ملامحه وتجاعيده، وبالكاد يحفظ أدوار البطولة، فكان "هاملت" عاشق "أوفيليا"، و"عطيل" قاتل "ديدمونة"، وامتلأت أرفف مكتبته بالنياشين والأوسمة وأنواط الشجاعة وشهادات التقدير والكؤوس الذهبية، ولا يدري أحد لماذا بعد كل هذا المجد، تطارده "حشرة النمرود".

فكر "جلال" أنه عاش **45** سنة دون هواتف محمولة وانترنت، وكان يشاهد التليفزيون الأبيض والأسود .. يستمع إلى الراديو .. يلعب الكرة الشراب .. يتصفح الجرائد والمجلات والكتب .. يهوى قصص اللص الظريف أرسين لوبين .. وأفلام شادية وسعاد حسني .. وانتهى به الأمر إلى كتابة قصة عن امرأة مطلقة تعيش على أطراف القاهرة، وبدت متعبة في الكازينو.. وقالت للجالس معها:

- لازم أعمل حمام .. عندي أملاح ..

في آخر الليل أبطلت رغاوي المسحوق رائحة عرقها، وبدت ملابسها الداخلية ممزقة.

## ( 9 )

كتب "جلال" أن التسلية إدمان بشري، حتى الحكام يتسلون بالأزمات، أزمة خبز، مياه، سولار ،كهرباء، دواء، سكر، غاز، تسلية ثقيلة الظل، ولا يخفف من حدتها سوى تسالي الفقراء بالثورات، ربما الملل من طلة الحاكم وتلويحاته المكرورة، نبرات صوته المستفزة، وبدوره يتسلى الوطن بالدم المراق.

في ظهيرة أحد أيام أغسطس بعد هوجة يناير، كان يلمع حذائه أسفل كوبري الجيزة، والميدان يضج بالباعة والبلطجية والسيارات تزحف بصعوبة وسط كرنفال بضائع تفترش الأرصفة، ولمح ضابط شرطة يجلس فوق مقعد بجوار بائع عجوز يرتدى قبعة زرقاء واضعا ساقا فوق أخرى، وبدا المشهد كأن الضابط يجلس في حمايته.

أعطى "جلال" سيجارة لماسح الأحذية مبتور الساقين، واقترب منه شاب ملوحا بمطواة ، وقال:

- هات سيجارة ..
- امشي ياد بدل ما أقوم أكسرك..

قالها ماسح الأحذية الكسيح بثقة أنه سينهض فعلا، واقترب شاب آخر يحمل سنجه، واشتبك مع حامل المطواة في معركة استعراضية.

كان الضابط يدخن بعصبية ويتحدث في اللاسلكي، وفجأة قال له البائع العجوز:

- قوم روح يا باشا .. العيال دي ناويه على شر ..

غادرت الميدان، وكان حذائي لامعا.

استيقظ "جلال" في صباح عنيف.. قال أن الشلال أبدعه فنان يعيش في صحراء قاحلة، ونظر إلى أعلى عبر نافذته، ورأى سيدة قبيحة تنشر الغسيل،

وتعجب من طول إقامته في هذا القبو، كان طبيعيا ما حدث بالأمس في ميدان الجيزة .. ربما كانت بائعة الذرة جائعة وترغب في تغيير ملابسها على وجه السرعة..

سطعت خيالات متوهجة على وجهها الخمري .. دندنت بصوت أجش أغنية حسن الأسمر "كتاب حياتي يا عين" تبادلت الشتائم مع عامل نظافة، وأوسعت مابين ساقيها للنار، وشدت نفسا من سيجارتها، وفي تلك اللحظة اقترب بلطجي وخطف كوز ذرة، وشيعته البائعة بإبتسامة ذليلة.

عادت "فريال" بأشلائها، وجلست في مقهى "أبو صدام"، ذات الشارع بذكرياته التائهة، مقاعد ومناضد متفرقة فوق الرصيف، ونوافذ مغلقة على أسرارها، ولغة للكلام صنعها "جلال" بنفسه، وافتتح المسرحية..

في مساء شتوي، مرت "فريال" من أمامه، وكأنها لا تعرفه، وجلست إلى منضدة، وأشعلت سيجارة، وأدرك أنها لمحته، ولكنها شردت بعينيها في اتجاه الشاشة، ورأى أن هيكلها العظمي لم يثر انتباه الجالسين، و نادى "جلال" على "الجرسون":

- تعرف الست العجوزه اللي قاعده هناك؟

استدار "الجرسون" برأسه ثم قال مبتسما: لا دي أول مرة أشوفها..

لم يتزوج "جلال" من "فريال"، هذا ما أكدته الشواهد، لا هي قللت من شأن العلاقة ولا هو عجل بقطعها، كان قلبها يدق حين عبرت معه الممر إلى المطبخ، دفع الأكياس إلي صدرها، وحين اتسعت عيناها بالوعيد، قبلها وتهاوت الحمولة فوق البلاط.

لا توجد تفاصيل في الورقة أكثر من ذلك، لن يكف "جلال" عن مراوغاته المملة، أين المولد والنشأة والسيرة الذاتية، سنفترض أنها ولدت في القاهرة

ونشأت وترعرعت في حي شعبي، حصلت على ليسانس الآداب، وتزوجت من زميلها وهربت معه.

المؤكد أنها لم تنتحر بعد الثلاثين، ولازالت تظهر في وسط العاصمة، ترتاد مقهى "أبوصدام"، وأحيانا تختفي بعيدا عن "جلال" في مقهى آخر ، وتستقر بجرمها فوق مقعد بلاستيكي، وتثرثر مع شخص آخر.

ليس ثمة تاريخ واضح للحكاية، هذا ما جناه عقله عليه، وتفرقت الأيام على عيون شاردات لنساء طاعنات في الأكاذيب، ولم يعد بحاجة إلى الشوارع، ولا بأس من بعض التجاعيد، وتوغل الشيب في رأسه، وتعجبت من فكرة موته على هذا النحو، والمشيعون يسيرون في بطء، والنعش ينفلت من أيدي حامليه، ويطير إلى الأعالي.

مشهد كهذا كفيل بتغيير وجهة الجنازة إلى سينما "رويال بالإسكندرية"، حفلة ظهيرة السادس من أكتوبر **1981**، الأجواء مضطربة في الشوارع، والمحلات في "صفية زغلول" شغلت القرآن الكريم، والخبر ليس مؤكداً عن إغتيال السادات، وكان "جلال" يشعل سيجارة تلو أخرى، ويتابع فيلم "عيون لا تنام"، وأحد المخبرين يتجول في الصالة صائحاً:

- طفوا السجائر يا أفنديه ..

ظلت "سوزان" عالقة في ذاكرته، يستحضرها حين يغفو وحين يجلس في بار قريب من البحر، وعلى مسافة آمنة من أيامه في "سبورتنج"، ويدفعه الهواء إلى هناك، ولازال المنزل ذو الطابق الواحد علي حاله.

ماتت "أم سمير" واختفت "أم ريري" .. ولكن "سوزان" على عهدها تقطع الشارع إلى السوبر ماركت، وتعود لتغلق دونه الباب.

في الأصل كانت "سوزان" ابتسامة كبيرة ملأت الصالة، أي حنان ودفء تخبئه هذه المرأة المستكينة، أية ضحكة أنثوية تلك التي تعطر قلبه باشتهاءات متضاربة، وتشرق روحه بالمحبة كل صباح، كأنهما علي موعد أمام باب البيت:

- صباح الخير يا أستاذ ..

تلك المرة قبلها، وتركها تشع بلذة المباغتة، ودار في شوارع الأسكندرية وقلبه يقفز فوق أرصفة المقاهي ودور السينما والكورنيش، وأخيرا ثقل الجسد فوق رمال البحر، وخف القلب وطار مع النوارس.

obeikandl.com

## ( 10 )

كانت بائعة المناديل تفترش رصيف سينما مهجورة في شارع "اليابان" .. وقف "جلال" أمام كشك الجرائد يطالع العناوين .. غدا استئناف محاكمة القرن .. مظاهرات حاشدة في ميدان التحرير، وأمام قصر الاتحادية .. رحيل الموسيقار عمار الشريعي .. القبض على تشكيل عصابي.

اخترق صف السيارات إلى الرصيف الآخر .. مشى بمحاذاة قاعة "سيد درويش" .. لم يلتفت إلى أحداث المعركة التي نشبت بين أصحاب السيارات، ورأى لافتة مضاءة لعرض مسرحي "الفاشلون" وحين وصل إلى شارعه وجده خاليا من المارة، وكان الجيران في انتظار خطاب السيد الرئيس إلى أهله وعشيرته.

يا أولاد ابتعدوا عن جدتكم "أم حامد" .. لاتزعجوها بصراخكم.

كل ليلة موعده مع سهرة صاخبة، وحلقة النسوان في عز البرد والحر ..

يا أولاد ابتعدوا عن جدتكم الثكلى ودعوها لأحزانها على ولدها .. دعوها أيتها الثرثارات .. دعوها توجه الزبائن من مقعدها، وتضع النقود المعدنية في جيب ثوبها الأسود .. دعوها مع محنة البدانة المفرطة، والمكوث الخالد فوق رصيف محلها العامر بالبسكويت الرخيص وعلب الثقاب.

يا أولاد بالله عليكم لا تقلقوا غفوتها وانكفاء رأسها وتصاعد شخيرها بعد منتصف الليل .. استدعوا لها التوك توك .. ساعدوها على بسط جناحيها في البراح المرتقب.

الليلة ثرثرت "أم حامد" عن أشخاص تتوعدهم إذا مروا من الشارع .. شحنتها سيدة شابة بصراخ يخالطه البكاء.

يا "أم حامد" كانت لـ"أم كلثوم" وصلة شهرية لا تزيد عن ثلاث ساعات، وأنتِ وصلاتك اليومية تبدأ بعد العصر وتدنو من الفجر.

قالت الطبيبة لـ"فريال": سيتخلون عنك، ويمرمطون بكرامتك الأرض، لا فائدة دون تصغير صدرك المتضخم، وربما أيضا تجاهلك الزاهدون في الحطام، ابحثي عن بداية أخرى، انتزعي نفسك من جذورك الموصومة بالفقر.

بارد هذا الليل، من بجوارك الآن يا"فريال"؟ .. أفرغي طاقتكِ كمريضة عاطفية، مشطي أحلامك فوق فراشكِ الملعون، جنون الأقلام التي تسطرين بها رسائلك، من يصدق أنه كان معكِ في غرفة واحدة.

- قالت "فريال": إنت عايز إيه؟ ..

تغلب "جلال" على ارتباكه .. في العمى اهتدت البصيرة إلى الثغرات المتاحة، وتصاعدت آهاتها الملتاعة، واستكانت لوطأة الجسد المنهمك في حركته المنتظمة، والخيال المتحرك على الجدار يفضح حمى الجسدين، وشهقاتها في لحظة الوصول.

ها أنتِ تبحثين عن سيجارة، وتنهضين بكامل تفاصيلك المستباحة، وتضعين قدمكِ على صدر الراقد فوق الفراش الأرضي، تشبكين يدكِ على جانبي خصركِ وتتلفتين قائلة:

- إيه رأيك؟

إلى هذا الحد تحول الفراق إلى صراخ، ونهايات مقترحة لجثث متشابهة، واختلطت في عينيه أجساد بائعات المناديل والنعناع، وامرأة عارية مستلقية على أريكة، ومغمضة العينين، وهو يندفع في آخر الليل إلى قراءة الأوراق الراقدة فوق الدولاب، ليعثر على إسمها مدوناً في ورقة بالية.

فكر قليلاً على راحتك يا"جلال"، وأذهب إلى مقهى في مدينة ساحلية، وهناك تذكر هذا الصباح الشتوي البعيد، وأنهض مسرعاً لمقابلة سيدة غامضة،

وفي الطريق تخيل أن لها غمازتين، وعينين منتفختين، وصوت أنثوي مبحوح، وأستبق خطواتك إلى محطة القطار، وانتظر.

obeikandl.com

## ( 11 )

أكتب إليكِ أنتِ بالذات .. لأنه لا توجد أنثى غيرك أخاطبها في تلك الساعة من الليل .. ربما يا "سوزان" لأنك مهمة جدا أو عادية جدا .. ربما لأنكِ بعيدة الآن.. طاردني صدى صوتك الدافئ مع دوران الوقت في موجة عصفت برصيف الكورنيش، وتناثرت بين السيارات المارقة، وعبد الحليم يغني "قوليلي مين زيك والله ما لكي زي".

مرت السيارة بشارع" بورسعيد"، قلبي هناك مع "سوزان"، كيف لي أن أهرب من النهاية إلى زوال الماضي، وأستعيد في الليل هياكل الزاحفات إلى دروبهن .. الإسكندرية .. المدينة التي تشبه نفسها .. فتنة العابرين وعشاق يخطئون التجربة .. دهشة المطر فوق ظلمة البحر.

اختلطت من نافذة الترام الشوارع والمنازل وواجهات المحلات، لاشئ يدلني عليكِ فوق الرمال، ولاشئ يفسر معني الوصول إلى هدأة جسدكِ المنهك بلذة النعاس وعبق اليود .. ربما ياحبيبتي قتلتك بطعنة غادرة.

قال "جلال" أن الشبح يسرق سجائره، حتى يخرج من القبو، متوكئاً على عصاه في الفجر، ويتنسم هواءا نقيا، و يدور في الشوارع بحثاً عن إمرأة غرزت سهمها في قلبه الضعيف، وتركته مضرجاً في خيباته، وتمنى لو صفا قلبه، وواصل تلك السهرات التى انقطعت مع "التهامي" و"ابن الفارض"، "أشاهد معنى حسنكم ..فيلذ لي خضوعي لديكم بالهوى وتذللي ".

كانت هناك أيام رائعة، وينتهي الأمر بصدمة أحيانا.

في مقهى "أبوصدام"، تحدث "فهمي" مع "جلال" عن فتاة متقلصة الوجه، وكارهة الدنيا ومافيها .. "نرمين" النحيلة لا ترغب في الاختفاء عن وجه

عاشقها .. وكما يقال مرآة الحب عمياء، وتوصف تلك المصائر بالفيروس المدمر.

ولأن رحمة الله واسعة فقد نجا "فهمي" من شر مبين، وحتى لا يصبح الأمر هزليا بشرائه الدباديب والتحدث عبر الهاتف لساعات طويلة، مشى صديقنا العاشق فوق الماء، ونادى على مصيره .. نهشته التفاصيل كمن ضاعت هويته وحافظة نقوده وفقد ذاكرته فجأة..

عادت الذئبة لترقص بحماس في زفاف أحد أصدقائه .. هل للرقص علاقة بنهاية المسرحية .. كذب المؤلفون ولو صدقوا .. مشهد الرقص بالذات لا يحتاج إلى تفسير من القراء المولعين بالتأويل.

ببساطة يتكرر كثيرا أن يلتف المعازيم حول امرأة أو فتاة ترقص بغل وغيظ، يتقلص وجهها العابس وعيناها الجاحظتان بقسوة، ويختلج جسدها بصرخات الندم، وذكرى الأيام الخوالي، ولا تفعل الراقصة ذلك إلا في حضور عاشقها القديم .. تتثنى وتتلوى بكيد عظيم، ويفلح العاشق حين يبتسم ويصفق ليصيبها بالدوار وتسقط قتيلة.

قال "جلال" لـ"فهمي" قم وصفق لها أيها الخائب .. صفق بحرارة واطعنها بابتسامتك .. أو اطعن نفسك واسترح من تلك اللعنة، واحذر من أنثى تعشش في رأسها أوهام الارتقاء .. لقد رأيت بنفسك كوب الشاي المتسخ .. رائحة البيت المثقلة بالفقر .. ضحالة ملابس النساء المولولات على الفقيد، وأشك أنها كانت ترغب في قدومك لأداء واجب العزاء في أبيها رحمه الله، وترى البيت المتهالك وأفراد العائلة غير جاهزين لاستقبالك.

لم تكن المناسبة ملاءمة للتزييف واستقبالك في منزل شقيقتها، والتفاوض هناك على مراسم الزواج.

بعد أيام ظهرت "نرمين" في ملابس الحداد، حاولت تشتيت ذاكرتك بميكانزيمات الصلف، وجلبت شقيقتها للتفاوض معك في بهو الأوبرا..

- قالت نرمين: اللى حتقوله أختي حأرضى بيه..

أتظن أنها كانت سترضى بقليله، أو أنها ستسكين لجذورها وترتمي تحت قدميك، وما هذا المسخ المسمى بأختها.

لقد أرادت "نرمين" الانتقام من عاشق كشف ستر عورتها، وتعالت أناها بالخصام وافتعال المشاجرات، وعادت لترقص وتتقمص دور صديقة العروس، ولكن "فهمي" تسمر في مكانه ولم يشارك المعازيم في التصفيق، تلبد وجهه وأشعل سيجارة المهزوم.

رفض "فهمي" التعليق على ماحدث .. مشى صامتا حتى مقهى "أبو صدام" .. كان يعلم الكثير عن "نرمين"، ولايدري أحد سبباً لتلك الآلام التي تباغته حين يراها .. ربما العاشق أدرى بحاله .. ربما متاعب فترة النقاهة.

ولكن "فهمي" لا يرغب في الشفاء تماما .. قد يقول ما هو أسوأ من انطباعات الآخرين عن فتاة متقلصة الوجه وشديدة الاضطراب، وكلما ظهرت "نرمين" تمتع وحده بالشجن.

**عاجل جدا ..**

ذهب فهمي إلى هناك وانتظر مصادفة تعيد الماضي بأكمله ..

شارع يفضي إلى حارة سد .. لم يعترض طريقه أحد في بداية الليل .. تطلع إلى نوافذ مضاءة .. كان يقترب من بيت "نرمين" .. تناهى ضجيج مغني في فرح بشارع مجاور .. انهارت أمانيه في رؤيتها مرة أخرى، وبدت هيئته بالبدلة الزرقاء تثير انتباه الجالسات فوق العتبات.

فكر أنه من الغباء أن يفتش عن ذكريات تافهة، وعاد إلى الشارع الرئيسي .. تنفس هواء مختلف برائحة الكبدة والكشري وعادم السيارات.

في غرفته بدل ملابسه وأخرج من حافظته صورة "نرمين" ومزقها .. ثم شاهد فيلم السهرة ونام.

أشارت الطبيبة إلى الشاشة، وبدت الغدة الدرقية كنسيج صغير متضخم حول الجزء السفلي من الحنجرة، وكان على "فريال" أن تجري العملية في أسرع وقت، وتزيل التضخم قبل أن تحتجز في قفص بحديقة الحيوان، ويلقي لها الأطفال بالفول السوداني، ويلتقط الرواد صوراً تذكارية مع كائن تعس يولف بين الأنثى والأفيال.

آخر قطار سيصل محطة "سيدي جابر" في التاسعة .. جلس "جلال" فوق دكة حجرية .. ستأتي "فريال" بحقيبتها الصغيرة .. ستأتي معبأة كخزان ماء مملوء لحافته ..

أنتِ آخر سلالة جيلك .. بطش الطبيعة الخلابة .. هل أنتِ مهيضة الجناح مثلا أم توحمت أمك على شاحنة بضائع؟

أهدافها الإستراتيجية تعلى من شأن أولى العزم، ولا غالب إلا الله.

لم يكن لديه مراجع تفيد بأن المطلقات والأرامل كلهن عفيفات، ولكن إحداهن لوحت بيدها في دلال، وغابت في زحام الصاعدين إلى القطار .. تركته إلى صدى كلام الموتى .. رائحة البارود .. دبيب الأقدام .. غابة الحقائب، وعيناه تفتشان عن أنثى تخالط الضعف ببشرة خمرية.

انزلق الركاب من القطار .. صفعته عيون وسيقان جاحدة .. كان من الممكن أن يذهب معها .. لكنها أصرت على الرحيل دونه، وبات الأمر مصحوبا بنوبات استعراضية .. رشاقته في السير على جدران الغرفة .. اختراق شوارع جانبية.. المكوث لساعات فوق رصيف مقهى أبو صدام. غادر المحطة وقال لنفسه:

- ذلك من تقاليد الشياطين..

obeikandl.com

## ( 12 )

عندما فتح "جلال" الباب، كانا يقفان على باب غرفتها والشبح يدخن بشراهة، اختفت من فوق الجدران صور وعلامات وأقوال مأثورة.

- لعل هناك أشباح أخرى في القبو..

شغلته أفكار أخرى عن الشبحين .. مشاهد تائهة.. تذكر فتاة مقوسة الساقين كانت تسير أمامه في الصباحات البعيدة .. اضاءة حمام خافتة.. بحر بلا ضفاف في اللوحة المعلقة بالصالة .. والمستحمة ابتلت روحها وغابت.

كلام لا ينتهى .. حكاية تلضم بأخرى، وتتراكم التفاصيل والسطور وألوان الكتابة .. أسود .. أحمر .. أزرق .. كأنه ينسج ثوباً من ضباب ملون.

50 **سنة .. رقم قياسي ..**

كانت لحظة فاصلة لكل الاعتبارات الماثلة أمامه .. بات الأمر خاليا من مهازل حقيقية .. الحمد لله .. كان "جلال" بصحة جيدة وملفوفا في كفنه .. ولا يخشى من انتظار موت آخر .. ولذلك خلع نظارته وتوقف عن الكتابة وأشعل سيجارة .. قرر ترتيب الأوراق .. وتدوين التواريخ وأسماء الشخصيات.

جدير بأحدهم أن يطرق الباب أو يرن الهاتف ..

جدير بأحدهم أن يقوم بواجبه .. ويحمل هذا الشخص الطاعن في السن إلى مستقره الأخير.

من أين لي بمعرفة مادار في الشات بين "جلال" و"جارديانا" و"فريال" و"ناهد" و"عبير" دون معرفة الباسورد؟

ترك "جلال" تعليقات عابرة ونصوص ومختارات شعرية ومقاطع فيديو لأغاني وصور من مناسبات متفرقة .. ترك هناك بصمات دلت عليه في العالم الافتراضي .. أظنها كانت ضرورية جدا لتوضيح مدى اغترابه في الوهم.

ربما كان الفيس بوك وهما، ولكن حياته المتشظية أشد وهما .. حياة لا تزيد ولا تنقص .. مؤشر يستقر في المنطقة الآمنة من الموت جوعا وقهرا .. انفجاراته المباغتة حمته من الطموح .. وارتضى لعبة المنتصف، ولا رغبة لديه في الصعود ولا الهبوط.

ضبط "جلال" المؤشر على مسرح الرقص .. انتظر في مكانه، وجاءه الفرج والرزق والنساء والعمل والدخان ، وتمتع بسجائره وطعامه وأحلامه وقصص حبه الخائبة.

ماذا يفعل الوحيد سوى تدليل ذاته وترويضها على تلقي الصدمات بثبات يثير دهشة المراقبين، وليس لديهم سوى انتظار موته ..الانتظار الذي قد يطول أو يقصر ، والعلم عند الله.

**إجازة طويلة بدون أحبة معنا ..**

**في أحد أيام عام 1999**

**جزء مقطوع من النص.....**

تتابعت جثث الغرقى في الطفو .. جرفهم الموج إلى الشاطئ، وبإهتمام بالغ حدقت في عيونهم.. بالطبع هناك أشياء لم تؤرخ بعد .. تركها "جلال" دون أن يبالي بمصائر بشر وقعوا تحت طائلة أوراقه المكدسة في أكياس سوداء.

كانت عيونهم غاضبة كأنهم عادوا إلى الحياة .. جثث جاحدة تطاردني في المقهى والشارع وغرفتي وأحلامي .. تطل برؤوسها من الأوراق المبعثرة فوق المكتب، ولا مفر من استئناف الكتابة عنهم.

اقتربنا من السور المرصع بشظايا الزجاج .. لم يمنعنا ظلام الفجر من تسلق الباب الخشبي لمقهى "أبو صدام" المطل على النيل، والوصول إلى شجرة التوت.

لا أتذكر كم كان عددنا وكيف خرجنا من منازلنا في تلك الساعة؟.....
أدركنا خطورة المهمة ..

حملنا بعض الكتب المدرسية للتمويه على كمائن الشرطة .. لفحنا هواء بارد في شارع البحر .. اشترينا علبة سجائر من كشك عم "رزق"، وزفرنا الدخان في الضباب ..

أصر "حسين" وكان أقصرنا قامة على صعود الشجرة .. أعطيناه الكيس .. خلع حذائه .. تسلق الجذع ككلب صغير، واختفى بين الغصون.

بدت الفكرة رائعة ونحن نتحرك بخطواتنا البطيئة وشيب رؤوسنا .. كان "حسين" راقدا في نعش غامض اللون، والطريق يغمره بياض شفيف..

تناهت إلينا أنات واهنة من نوافذ البيوت .. أطلت امرأة من شرفتها وصرخت:

- مع السلامة يا خويا ..

غاب "حسين" عن عيوننا، وبعد دقائق جاءنا صوته :

- مش عارف أنزل...

استلقينا على الأرض من الضحك، وقال أحدنا :

- أجيب لك أمك تنزلك ..

بدأنا في عملية تفاوض سريعة .. هددناه بعدم إعطائه نصيبه المتبقي من السجائر وقذفه بالطوب، ورأينا الكلب يهبط محتضنا جذع الشجرة .. كان الكيس فارغا، وفمه ملوثا ببقايا التوت، وانهلنا عليه بالضرب.

اختفى "حسين" تدريجيا .. انكشف المشهد على مقابر صفراء ومشيعين .. نهار آخر لن يدركه .. أرداف ثقيلة لنساء متآمرات .. أغانيه المفضلة .. سجائره .. الأضواء .. مضاربات البورصة .. جلوسه كل يوم بالساعات مشدودا أمام شاشة .. ترقب مصير مبهم في انتظار مبارزة غير متكافئة .. أسهم صاعدة وهابطة تطوحه بعيدا عن طوق النجاة.

كان ذلك كافيا لمغادرة المقابر ومعنا "حسين" .. ملفوفاً في كفنه، ومضينا بخطواتنا البطيئة وشيب رؤوسنا إلى شارع البحر .. تسلقنا الباب الخشبي .. وهناك اكتشفنا اختفاء شجرة التوت، ورأينا جذعا ضامرا تلهو فوقه الحشرات.

obeikandl.com

## ( 13 )

تمنى "جلال" لو اكتملت بلاغته، وتحدث أكثر عن أشياء تخصه .. لو كان إنسانا من لحم ودم، ولكنه تحول إلى هيكل عظمى يقفز فوق المقابر، ويمسح الضباب عن حروف اسمه الغائرة في شاهد رخامي ..

**الإسكندرية شتاء** 1979 ..

منذ أيام كتبت قصة رائعة عن طفلة تبيع علب الكبريت في ميدان المنشية، وتكتب واجبها المدرسي أسفل عامود كهرباء

.. أفقت على صرخة "أم سمير":

- اتفضل ياحاج ..

طرقت المرأة العجوز باب غرفتي .. وجدت أبي أمامي .. كان يحمل لفافة طعام وضعها على المنضدة، وصافحني مبتسما.

خمنت أن "سوزان" .. مارست هوايتها في النوم فوق كنبة الصالة .. تلك الهواية التي أرقتني منذ سكنت في هذا البيت ذو الطابق الواحد .. غالبا ما رأيتها عارية الساقين .. تلقم حلمة ثديها لرضيعها، وتشيعني بعينين جائعتين.. ظلت العلاقة بيننا صامتة، ولا يجرحها سوى تحرشات خاطفة.

انتهى أبي من سيجارته وكوب الشاي .. تصفح كشكول المحاضرات وكتب المحاسبة..

- بتذاكر كويس ؟.

في الطريق غمزت لي "أم ريري" مبتسمة ..

- أنت تعرفها ؟.

- هي مين؟.

- الست اللي قاعده على الرصيف.
- أبدا ..
- وحياة خالتك؟.

اشتدت رغبتي في التدخين .. ثلاث ساعات كاملة وأبي يدخن دون رحمة .. أعطاني مصروف الشهر .. أول شيء سأفعله شراء علبة سجائر، ومشاهدة فيلم "شفيقة ومتولي " في سينما "أوديون".

مشيت مع أبى في شارع "صفية زغلول" .. عرجنا إلى شارع خلف سينما "الهمبرا" .. صعدنا درجات رخامية .. اشتكت صاحبة البيت من مشاكل الأولاد والميراث .. قلت في نفسي هذه عائلة ملعونة، وتسليت بمعاينة محتويات الغرفة، وتعلقت عيناي بالنجفة المتدلية من سقف عال، واصطدتما بخشب الباركيه اللامع، والزخارف الملونة لزجاج النافذة، واستقرتا على وجه صاحبة الدار.

كان طعم الشاي ماسخا .. تركت نصف الكوب ممتلئا فوق الصينية..

أدركت أن المرأة قلقة من وجودي، ومراقبتي الوقحة لتجاعيدها المرتجفة .. صوتها الأجش .. ضحكاتها المتصابية .. فجأة إلتفت إلى وقالت بابتسامة صفراء:

- الشاي مش عاجبك؟

غيبة الدخان أفلتت أعصابي..

- لا مش عاجبنى..

تململ أبى وكادت كفه أن تصفعني، وتوعدني عندما نخرج..

بعدها لم تبدى المرأة أية مودة تجاهي .. كأنها لا تراني أو أنني غير موجود أصلا.

في الشارع توقعت حركة غدر من أبى، ولكنه وضع يده على كتفي .. وقال مبتسما :

- جدع يا "جلال" .. شايها ماسخ بنت الكلب..

لم أجرؤ على التمادي بسؤاله حول علاقته بتلك السيدة .. كان يمسح نظارته بمنديله، ومشينا صامتين، وفوق رصيف القطار قال متوعدا:

- السنة دى فرصتك الأخيرة ..

**في الإسكندرية كم سراب بدأ ؟**

قالت "أم ريري" أنها صبرت على فراق المرحوم ثلاثة أشهر، وتعذر عليها العثور على شريك آخر.

الخامسة في مساء شتوي تبدد الحذر .. الشارع هادئ تماما، وفي صالة شقتها انطلق دخان السجائر .. لا أدري كيف واتتني الجرأة للصعود إليها .. تعللت أنني أبحث عن غرفة خالية لأحد زملائي.

كانت هادئة حين ذهبت إلى الحمام واغتسلت.

قلت أن الفرائس بحاجة دائمة إلى صياد غشيم لا يقيم وزنا للمخاطر .. إذن فالأرملة كما توقعت بلا مظلة طموحات، وفي العناق تدحرج روبها الوردي عن جسد مترهل.. سال منها العرق .. سواد الكحل.

من جانبي تمنيت لها الموت قبل أن تصل إلى نشوتها .. تمنيت أن أقتلها، وتظل عيناها مفتوحتان، وشفتاها منفرجتان بابتسامة داعرة.

ولم لا ؟ .. الأمر بسيط .. يحدث أن تقرر امرأة خيانة ماضيها، ولكن ليس بمثل هذه السرعة .. دائما هناك مبادرات غير طيبة .. لا شيء سيذهب إلى شاطئه دون وداع .. اللصوص والعاهرات والضحايا والكلاب الضالة .. لاشيء يحقق لها جلسة عائلية .. لحظات سمر .. مناسبة سعيدة .. زوج تعد له الإفطار .. خذوها إلى الجسر، ودعوها تعبر الضفة الأخرى .. دعوها تبكى وحيدة.

كل هذا يفسرالعناء في محو تلك الكوابيس المتفرقة، والتي ألهمتني دوما بسرد تفاصيل مضطربة، واستحضار شخوص في أشد لحظاتهم ارتباكاً، وأظن أن هذا لا يعني "جلال" في شئ، وسيدفعه لإنهاء المكالمة قبل أن أنتهي من قراءة هذا النص، وربما تلك أصدق لحظاته، وأكثرها أريحية ..

احجز نسختك من الآن يا صديقي .. الدليل قابع في جيب معطفك .. هويتك .. شهادة ميلادك .. علبة سجائرك .. حافظتك .. هاتفك المحمول .. مقاهي نمت في شوارع جانبية .. أرصفة .. قصر معلق فوق حافة صخرية .. شارع يفضي إلي بحر .. ضباب وصمت يلف الطريق إلى هناك .. بعض العاريات في الفجر الوشيك .. نهار آخر لن تدركه .. ضجيج السيارات .. الأضواء .. المظاهرات .. الشغب .. كمائن الشرطة.. تذكرة قطار مسافر إلى الإسكندرية..

**" يا ويلي من فتيات القطار المكيف ونساء مسافرات إلى بحر "**

**جزء محذوف من النص.....**

**يتكرر المشهد في أحلامي بنفس الرابط والتزامن .. قطار يرمح فوق جسر يصل بين ضفتين .. صحو غائم بين شروق وغروب .. من هنا يمر التاريخ ويترك أصداء حكايات من عبروا .. لحظات ويختفي القطار المشوش بنزق سرعته .. وتنطبع على نوافذه ذكريات عيون ناعسة .. ولا يبقى سوى بحر يزوم في خفوت .. شجن غائر يستوحش بهاء الأبيض والأسود .. وأفق سماوي في انتظار الشخص العابر.**

## ( 14 )

ذهبت العائلة والأب المفتون بالمخدرات .. لم أعلم بموته إلا بعد ثلاثة أشهر.. مهلة كافية لتقبل الأمر ..

أبلغني "ناصر" أنه زاره آخر مرة في بيت للمسنين ..

حدثني "فريد" عن جرائم ارتكبها وأخرى أظن أنه أخفاها عن عمد .. كان قد كلفني بترجمة رسالة من زوجته المهاجرة إلى أمريكا .. لم أخبره أن الأولاد أصبحوا يحملون أسمها، وعندما عرف اتهمني بخيانة الصداقة.

بعد سفر زوجته وولديه، أصبحت شقته مأوى لصعاليك وعاهرات وهاربين من أحكام .. لا أدري لم دعاني دون أصدقائه للذهاب معه إلى المطار.

كان مشهد الوداع لا يتفق مع مرح زوجته وشغب طفلهما المدلل .. حتى "فريد" كان مبتهجا ويمازح ابنته، ودعانا شقيق زوجته للعودة في سيارته .. متخافش يا "فريد" دى رايحه لأخوها ..

- مش خايف بس ..

في تلك الليلة أخبرني بهواجسه :

- مش حترجع تانى ..

كانت هجرة زوجته نوعا من الطلاق المقنع .. المرأة لم تحتمل الضغوط مع رجل فاته قطار النجومية، وغرق في المخدرات.

لم تشفع أدواره الصغيرة لدى مخرجي السينما .. تساقط شعر رأسه وأصيب بضعف البصر، وظل يقوم بأدوار ثانوية في فرقة مسرحية خاصة، ويتعثر في الكواليس.

كل هذا ولا أدري أسباب تنصل زوجته من وعدها بدعوته للسفر إلى أمريكا، والعيش هناك حتى آخر العمر.

تباعدت الاتصالات بينهما، وفي عامه الأخير أيقن "فريد" أن الخدعة اكتملت برسالة صوتية مسجلة على هاتف زوجته.

هاجمته جلطة في المخ، وحين غادر المستشفى .. ارتبكت علاقته بالشارع .. ظل ملتصقاً بشاشة التليفزيون وأمامه علبة السجائر، ولا يفتح الباب سوى لشقيقه "فتحي"، ومن يحضرون له الطعام ويضعونه في الثلاجة.

بات "فريد" نسياً منسياً .. تطارده أحلام السفر على طائرة إلى أمريكا .. عودة زوجته وولديه .. ارتداد بصره واسترداد رائحة كواليس المسرح .. توتر الدخول إلى الخشبة وتصفيق الجمهور.

حاول ترجمة أوراق الهاربة، وحلم بتأشيرة وتذكرة سفر .. طرق بعنف على باب الأسانسير المعلق في مبنى النقابة .. لف في شوارع العتبة للعثور على منزل شقيقة زوجته ..

حلق فوق محيطات وجبال شاهقة .. ارتد بصره عندما ارتمى ولديه في أحضانه .. ابتهج بزئير الأسد في مقدمة أفلام "مترو جولدن ماير" .. اسمه المكتوب بعد "آل باتشينو" .. "كيفن كوستنر" .. ومضات آلات التصوير التي تلاحق الممثل العربي العالمي.. كل هذا لا يعنى شيئا لشخص فقد ذاكرته .. مغامراته .. إخفاقه مع "شاهنده" التي طالبت شقيقه "فتحي" بأجرة التاكسي ومنشطات الذاكرة.

جدير بأحدهم أن يطرق الباب .. لا سبيل إلى معرفة ما تظنه "شاهنده" بنفسها .. امرأة قصيرة تنبعث منها رائحة الثوم، وتنطلق في الشخير فور انتهاءها من الطعام.

كان من العسير الاستدلال على عنوانها .. عمرها الحقيقي، وعلى الأرجح كانت خادمة وقوادة استوطنت شقة "فريد"، ولا تمانع في مجالسة أصدقائه .. في

إحدى الليالي فتح "فريد" الباب وركلها خارج الشقة .. تدحرجت فوق الدرجات، ولم تظهر مرة أخرى.

لا تثقوا كثيرا في المؤلف .. هناك حياة عاشها "فريد" .. بشر من لحم ودم.. أحداث وتفاصيل وجرائم .. بيت لحقه الخراب .. أفكار أكثر إنسانية .. شخص يتضور جوعاً .. طرقات جارته ومعها صينية طعام .. صديق يصطحب امرأة ويضيق عليهما الخناق، ويذكرهما أن الشيطان ثالثهما، ويدير مؤشر الراديو على محطة القرآن الكريم.

ظلت صورة زوجته وولديه معلقة فوق جدار الصالة .. سقف حمام ينشع بالرطوبة ومياه المجارى .. شخص يتأمل واجهات المحلات .. يدور في الشوارع لينتقم من شريكه في شركة الإنتاج .. تطارده أحكام في شيكات بدون رصيد .. عاطل عن العمل ومضاجعة النساء..

يملي شكواه إلى "شاهندة" التي تعيش معه بلقمتها .. يصعد إلى مقر نقابة الممثلين .. يدخل مستشفي قصر العيني لإجراء جراحة فاشلة في عينيه .. يذهب إلى صديقه صاحب ورشة تصليح السيارات .. انتفض من أمام التليفزيون .. نظر من العدسة السحرية .. كانوا يزلزلون السلالم بأقدامهم .. طرقوا الباب في عنف، واصطحبوه إلى قسم الشرطة.

اكتمل صمت "فريد" فوق مقعد متحرك .. في هذا الركن من العالم كان يحتفي بصحبة عائلته الجديدة في دار المسنين، ويفسر لهم القضايا المحيرة .. يرتب أفكارهم حسب مشيئته .. يدخن ويشرب الشاي دون أن يدرك حماقته التي عطلت انغماسه في التجربة، وقيامه بدور "عطيل"، "شكسبير" أو "ميرسون" "غريب كامي"، وجعلته مجرد شخص يرتزق من أفكار بالية، ويؤدي أدواراً ثانوية في مسرحيات هزلية.

هادئ أنت الآن يا "فريد" .. لا نساء .. لا أضواء .. لا عائلة .. تساقط شعرك وداهمتك الجلطة .. صرت اسما مدوناً على حجر.

بعد سنوات ظهر شبح "فريد" في مقهى "أبو صدام" .. كان يدخن ويبتسم في وجه مصافحيه، ويلقي النرد في مواجهة حاسمة مع خصمه .. في تلك الليلة قال بثقة:

- لازم نتعلم من الشر ..

توقع "فريد" ظهور "شاهندة" .. جلسا في الصالة .. قامتها القصيرة لا توحي بمعركة، وتحركت أمامه بجسد مترهل.. استرحمته: أسرع العمر يجري..

حرارة الصيف عبقت الغرفة برائحة الدخان .. احتدم الصراع بسكرات الانتشاء، انتابه شعور بالشفقة عندما انحسر ايشاربها الوردي عن خصلة شعرها المحنى .. لملمت ملابسها وحذائها وذهبت إلى الحمام .

كانت "شاهندة" أرملة عفيفة تركت في يده لفافة طعام، وانحدرت مع ابنتها من ميدان "السيدة نفيسة" إلى شارع جانبي.

أي طائر خبأته هذه المرأة في قلبه، ولا يكف عن النبش بحثا عن كوة للخروج .. كانت تلوح له وابنتها المضطربة تجذبها من ذراعها ويختفيان في الزحام.

بعد سنوات قابلتها مصادفة في شارع "الهرم" .. صدعتني "شاهندة" بحكايات مبتورة عن شخص كان يرقد في مستشفى .. معصمها الذي يؤلمها حتى الآن من ضغطة شقيقه "فتحي"، ودفعه لها خارج الشقة .. تنهدت مبتسمة ..

- الله يرحمه ..

كان "فريد" يبحث عن سيجارة في مستشفى خاص .. يضحك عندما لا يتذكر أسماء زائريه .. تتحرك شفتاه بكلمات خافتة .. يهز رأسه يائساً .. يرفع عينيه في اتجاه شاشة التليفزيون، ولا يلبث أن يستسلم للنوم، ويرى فيما يرى

بحارا ومحيطات تفصله عن زوجته وولديه .. ينزع الإبر المغروزة في شرايينه .. ويجرى في الممر.

قطع الجرس حبل أفكاري، قال "أبو صدام" لاهثا:

- يا أستاذ تعالى بسرعة..

كانت الجثث تملأ المقهى وتسد الباب .. تمنيت ظهور محارب قديم يدلي بنصائحه عن كيفية التخلص من بقايا المعارك .. تفادى حذائي أقداما ورؤوسا أعرف أصحابها جيدا .. وأعطيت الأكياس الفارغة لـ"أبو صدام" .. وقلت بنبرة قائد :

- اتصرف ..

بعد دقائق عاد "أبو صدام"، وكان ممتقع الوجه وعيناه جاحظتان وجلبابه ملوثا بالدم، وبجانبه الأكياس مكدسة بالأشلاء، أقترحت أن يحضر سيارة نقل، وأعطيته نقودا، ولكن رفض قائلا:

- دى مسئولية يا أستاذ .. الأكياس تخصك وأنت أولى بيها ..

ظهر الشبحان في الصالة، ولأول مرة أسمع صوتهما :

- أنا مش قلت لك خشي ذاكري..
- أنا عاوزه أروح لماما ..
- أمك راحت في ستين داهية ..
- ياسلام يعني مش حشوفها تاني ..

انتبها لوجودي ودخلا إلي الغرفة .. اقتربت من الباب، ولم أسمع شيئاً.

## ( 15 )

جلست مع "جلال" في مقهى "أبو صدام"، وكانت خيام المعتصمين في ميدان التحرير على بعد أمتار قليلة، وبجوارنا جلس شابا وفتاة ترتدي ثوب الحداد، وحياهما "أبو صدام" بحرارة، وعرفنا فيما بعد أنه شقيق أحد الشهداء، ويعتصم في الميدان منذ جمعة الغضب.

كانت الشاشة تعرض مؤتمراً صحفيا، وتقمص المتحدث بإسم الجبهة دور "ماجد الكدواني" في فيلم "الفرح" ووزع تحياته الحارة على قيادات الإنقاذ.

قال "أبوصدام" الجالس بجوار النصبة:

- لو جاءوا إلى الميدان لخرج وراءهم الملايين ..

علقت الفتاة ساخرة:

- كل حزب عشرة أفراد ..

تناثرت التعليقات من أفواه رواد المقهى القليلين .. استأذنت من "جلال" في الإنصراف، وتركته يحملق في الشاشة مبتسما، وسمعته يقول للجرسون:

- هي الأستاذة "فريال" ظهرت النهارده؟

هبطت درجات المترو، وتوقفت عند بائع كسيح، وقلت له:

- إيه رأيك في الإخوان وجبهة الإنقاذ ؟

تفرس البائع في وجهي وقال محتدا:

- عايز إيه يا باشا خلص مش ناقصين وجع دماغ ..

في تلك اللحظات المريبة .. امتدت أصابعهم المشوهة إلى آلات الكيبورد، كانت عيونهم جاحظة ولعابهم يسيل كمصاصي دماء، وأصابعهم المتآكلة تتكتك فوق الأزرار.

في تلك اللحظات المريبة .. تصارع التاريخ مع أيديولوجيا المؤرخ .. تلطخت صفحات الفيس بوك وتويتر بالأكاذيب .. جاع فقير .. تشرد طفل .. فسدت خصال امرأة .. مات مظلوم كمداً .. سالت دماء، وترك الجناة بصماتهم في التدوين الركيك.

كان يوما مشهودا .. غرق المطبخ والصالة .. دخلت المياه إلي غرفته .. حلقت بعض النوارس، وطارت بعيداً عن الرائحة .. احتشد الآلاف في ميدان التحرير وصلوا خلف الشيخ القرضاوى .. طالب أحد قراصنة الثورة بالقصاص العادل .. تأهبت راقصة لكتابة مشوار حياتها.

قطعت جلستي أمام الكمبيوتر، وذهبت إلي مقر الصرف الصحي .. قال الموظف:

- سنرسل العامل..

كان الموتور لا زال يطلق زخاته النارية، والمياه يسبح فيها كيس القمامة .. علبة سجائر فارغة، وإناء بلاستيك.

لم يكن أمامي سوي نزح الماء خارج الشقة .. أيقنت أن أحدا لن يجيء بعد الرابعة عصرا، وسأنتظر إلى الغد عامل المجاري المستحيل.

فكرت في إمكانية السيطرة على الحدث .. تناول الطعام .. التدخين .. رشف الشاي، ولكن الأمر تحول إلي منعطف المجاري .. تلك الملحمة التي تكررت كثيرا في مسكني بالقاهرة.

بدا أن الشبحان لا يكترثان بتلك المهام الصعبة، وكلما أهلت عليهما المياه لا يصيبهما البلل .. ويتلطخ الباب المغلق.

تلك المرة ظهرت الفتاة بمفردها ..سألتها:

- أبوكي فين ؟.

لم تجب كأنها لا تسمعني .. دارت حول نفسها وانطلقت تغني :

- البنات .. البنات .. أجمل الكائنات ..

صفقت لها وهي تسرع الدوران، وخرج الشبح من الغرفة صارخا :

- يا بنت الكلب عاوز أنام ..

أفقت على جرس الباب .. إستأذن محصل الغاز في قراءة العداد، واختفى الشبحان.

**السابعة صباحا موعد الزبال**..

كان الكيس مليئا بقصاصات ورقية .. فتشت بين الأوراق المتبقية عن قول مأثور .. لعنة إضافية تحاكي نسبة الشر التي دفعت سيارتين إلى الاصطدام في الليلة الماضية، رغبة المارة القليلين في مشاهدة معركة تسيل فيها الدماء.

أؤكد لكم أنني مواطنا صالحا .. ولدي فوبيا من عبور الطريق، فقد صدمني موتوسيكل منذ شهور .. فقط لأنني أخطأت ونظرت في الاتجاه الصحيح، وبدم بارد تركني سائق الموتوسيكل مضرجاً في دمائي.

بدأت الفكرة من حادث عابر .. ربما خمسة أو ستة من القتلى .. هجوم بربري على جنود انتهوا من صلاة المغرب، ويتناولون إفطارهم الرمضاني فوق الرمال .. شكل العيد في صناديق معبأة بالجثث.

في بداية الليل ركبت ميكروباص إلى الجيزة، وقال السائق للشاب الأصلع الجالس بجواره:

- يعنى أنت تعرف الواد "خلوفه" ..

نظر إليه الشاب باستنكار .. وقال:

- يا عم دا من بلدنا .. وكان عنده اتنين رشاش آلى مترخصين منهم واحد ميرى .. بس كان واد جدع وصاحب صاحبه، وخد علقة موت في القسم ومرضيش يعترف على "شلبوكه" ..

وهنا تدخلت سيدة عجوز في الحوار ..

- هو مش خلاص مفيش بلطجه ..

ورد الشاب الأصلع:

- يامه دا مش بلطجي .. وفي آخر أيامه كان بيساعد الناس ويجيبلها حقوقها..

تساءلت العجوز:

- إزاى يعنى؟

وهنا تدخل السائق ليعفي صديقه من الحرج:

- خلاص يامه بقى ..

ولكن الصديق الندل ردها له، وكأنه يقول أنت مش عارف تأدب الركاب:

- وأنت يا أسطى تعرف "خلوفه" من إمتى؟

- لا أنا عارفهم كلهم .. "شلبوكه" و"خلوفه" و"العرسه" ..

وفي تلك اللحظة اتشعبط راجل شكله غلط ..

- المنيل بكام يا أسطى؟

- بنص جنيه ..

وبعد عبور كوبري "الملك الصالح" .. قال السائق:

- المنيل أهه ..

- أنا رايح شارع "خراره" ..

- انزل وامشي شويه لورا ..

انفجرت في الضحك أنا والرجل الجالس جانبي ..

- خلوفه وشلبوكه وخراره .. إيه الليلة المجارى دى ..

وبعد عبور "كوبري عباس" .. توقف الميكروباص، ونظر إلينا السائق بغضب:

- خلاص يا أفندية الجيزة والآخر ..

شقة القاهرة من حق أشباحها .. أخذنا متعلقات "جلال" رغما عنا، وبحضور مالك الشقة .. فقط ساومنا على جهاز الكمبيوتر، وحين عاينه تراجع عن الفكرة، وأصبحنا أمام تركة مثقلة بالأطلال، واحتراما للغائب قمنا بالمهمة، وفي الطريق تخلصنا من ملابسه وأحذيته القديمة.

obeikandl.com

## ( 16 )

طالت جلسة "كريم" في مقهى "أبو صدام" وأتت عرافة سمراء جميلة كما يحب ..

قالت له بالفصحى: أحيني اليوم وأمتني غدا..

وصلته الرسالة وغنى " عدت يا يوم مولدي .. عدت يا أيها الشقي.."

قال لها: هناك أشخاص لا تتوافق أبراجهم .. ولكنهم أصدقاء مخلصين .. زيدي على ذلك الهوى السياسي .. وبعض الميول .. ولكن الطرق غير ممهدة..

قالت له بالعامية :

- إنصح نفسك دايما ..
- بإيه ؟
- بالخير طبعا..

اختفت العرافة .. فكر "كريم" بين رشفات الشاي .. ما الذي دفعه إلى التمسك بالفقر .. مؤامرات عصبيته الزائدة .. وازدواجية الفضيلة والتحرر .. الأقدار التي تجرفه إلى تفاصيل يمكنه سحقها .. الخيط بيده وغالبا يفلته عن عمد ليدخل في معارك استرداده .. بطبعه طموحاً ويهوى الشهرة والأضواء .. ويؤرقه توتر المراحل .. وسطوة الأخ الأكبر ..

- موسيقى إيه وكتب إيه من غير عربية وشقة تمليك ..

لا أصل للأشياء التى ترتد عليه في كوابيسه .. وغيامة الرؤية في الشارع والمترو والمؤسسة والمقهى والبيت.

في تلك اللحظات يطارده زفير حيوانات ضالة .. وأنات حنجرة تخشي النشاز وتغيير محل الإقامة .. ضربة واحدة للمقامر .. يا راحت يا جت .. ولكنه لا ينوي المقامرة .. أذنه الموسيقية أتلفها ضجيج رواد المقهى .. استهلال منطقي يفضي إلى نتائج عكسية ..

- من يعاقب من؟

هؤلاء الأجلاف والأبقار والقردة والغزلان والبشر والمومس والقواد والأرملة والمطلقة والوضيع .. سيأتون ويذهبون ويموتون ويسرقون ويستغفرون .. سيكونون بالتي هي أحسن وبالتي هي أسوأ.

كان ممكنا لكريم أن يعيش في الستينات .. وينافس عبد الحليم حافظ ..أو يتأهل لعضوية الإتحاد الإشتراكي .. ورئاسة منظمة الشباب .. ويرشح وزيرا للثقافة .. دائما ما يزهو بصورة عبد الناصر الموشومة في قلبه .. ويتذكر الطفل الذي حمله أباه وخرج لاستقبال الزعيم .. قالوا أنه التقطه من بين عشرات الأيدي التي امتدت لمصافحته، وومضت الفلاشات بالصور التذكارية.

لازالت تشجيه أغاني الثورة "على راس بستان الاشتراكية" "كنا حنبني وأدي احنا بنينا السد العالي .." وتطارده ويلات الخصخصة وتجريف أرواح الشعوب .. وبحكم ثقافته ارتضى المؤجلات كمنتظر لسماء تمطر ذهباً وفضة.

سيغضب "كريم" من هذا الاختصار المخل، ويعتبره نوعا من التحريض الكاريكاتوري عليه، وتصنيفه في خانة الحماسيين وذوي النزعات العدمية الذين يرغبون في الهدم لذاته، ويؤمنون أن المجتمعات البشرية في حالة بالغة من السوء والفوضى، ولا يرتضي بغير التجربة الناصرية بديلا.

هناك حياة عاشها بالطول والعرض .. معارك ونشاطات لا يمكن إغفالها .. مظاهرات ومداخلات واعتصامات ولقاءات تليفزيونية، ولكن التترات خلت من إسمه .. بنط التوقيع كان أصغر من اللازم في دفتر الأحوال، وغالبا ما ينفث عن غضبه بتكميم حنجرته المدربة على الأغاني، وياويل من يسأله:

- لماذا اعتزلت الغناء؟.

فسخ خطبته من فتاة ذات ميول إخوانية، وأخرى كانت أكثر وقاحة حين زعمت حضور عبدالناصر سبوع الأمير أحمد ابن الملك فاروق، وفي كل يوم يجلد حنجرته بسياط الأوراق التي سطرها كسجان محترف.

دخل الصراع عامه الثلاثين .. الأربعين .. لا الحنجرة تحررت من الأسر .. ولا الأوراق تآلفت مع أصابع المحترف .. وجلبت له الحظ.

سيقول "كريم" أن الأمر يستحق ذلك العناء .. وفي كل مرة ينفتح الستار على مونودراما الضيف العزيز على المآسي ..

الشياطين يتعجلون استفزازه .. محاسب المؤسسة .. جرسون المقهى .. سائق الميكروباص .. زملاء العمل .. امرأة عابرة .. مكالمة تليفونية غامضة .. دسائس ومؤامرات تستهدفه في الصباح والمساء .. وتعكر صفوه مع كوب شاي في مقهى .. لقاء مع صديقة ..

ويا فرحة ماتمت .. باظت آلاف السهرات .. وعبرته السنوات كعقاب على تكميم حنجرة .. لكنها لم تحرمه من الترقي كجلاد.

في الليل يختلط أنين الناي بالصوت المشجون .. وتتخلخل أسنان الغارق في الكابوس.. وينطلق غناء الحنجرة خلف القضبان في سرداب سحيق.. وتترنم السجينة الفرحة بنوم السجان.

وفي كل يوم يجلس "كريم" في المقهى.. وينتظر العرافة السمراء .. كل يوم ..كل يوم ..

**ملحوظة:**

بدأ "كريم" في نشر صوره الشخصية علي صفحته بالفيس بوك .. وعمد كتابة تعليق عن تاريخ ومناسبة ومكان التصوير .. ونشر مقالاته وتعليقاته على الأحداث الجارية.. وبين حين وآخر يشارك أصدقائه في صور وفيديوهات متعلقة بالزعيم.

الغريب أنه لم ينشر قصائده ويزاحم الشعراء العالقين بصفحته الرئيسية .. ربما ظن أن ديوانه الوحيد كان كافيا لإثبات موهبته الشعرية .. وأرضاه ثناء بعض النقاد .. فقد كان الشعر مدخله للالتحاق بمعهد الموسيقى .. والكتابة في السياسة والسينما والنقد الأدبي ..

بات أصدقاؤه في العالم الافتراضي أكثر عنفا .. ولدى بعضهم نزعات إجرامية وميل إلى الزعم بامتلاك الصواب والحقيقة المطلقة .. مما جعله يبادر باستخدام خاصية "البلوك" ..

كان آخرهم صديقه الكاتب الذي يكتب مقالات منتظمة يدافع فيها عن الرئيس المعزول .. اعتبر "كريم" أن صديقه هذا أضل سبيلا من الشيطان .. وفالحاً فقط في السخرية من خلق الله .. ولم يكن الخلاف بينهما قاصرا علي وجهات النظر .. بل حول الكتابة المنهجة في تزوير ما يجري من أحداث .. وتغاضى هذا الصديق عن خروج الملايين الرافضة للرئيس المنتخب وحكومته وجماعته وأهله وعشيرته.

منذ سنوات جاؤه استدعاء غير مكتوب .. أبدى مدير المؤسسة تعاطفه:

- خلى بالك من نفسك يا "كريم" ..أنت زي ابني ..

في الصباح كان هناك، ومشى في غرفة واسعة حتى وصل لمكتب المسئول، أشار له مبتسما بالجلوس :

- إيه يا "كريم" مش ناوي تعقل؟.
- معندكش كتب غير لأصحابك الروس ؟.
- مش عاوزين قلق اليومين دول ..
- اتفضل ياسيدي .. سيب بياناتك بره ..

في غيمة ضحى صيفي جلس "كريم" في مقهى "أبوصدام"، كانت مياه النيل تعبر الحواجز الحديدية كشلال .. طلب كركديه ليخفض الضغط .. اقترب المندوب الأمني وصافحه :

- أنت فين يا أستاذ مختفي من زمان ..
- مش أحسن ماتلف ورايا في الشوارع ..
- والله بأطمن عليك ..
- ما أنت عارف إني في القاهرة ..

ارتبك المندوب وانضم إلى المخبرين الثلاثة، واندمج في مراقبة مباراة الدومينو، فكر "كريم" (كيف سيكتب هذا الأحمق تقريره، لعله يمارس الكذب مثل كاتب محترف، ويختلق أحداثاً من شأنها أن تثبت أهميته .. ربما سيكتب الليلة مذكرات مخبر معتزل .. ماذا لو اطلعت على ما كتب، وحصلت على نسخ من تقاريره السابقة .. هل دربوه على فنون السرد .. تداخل الأزمنة .. تراكم التفاصيل .. متى ستنتهي مهمته .. الأحمق لو نشر تقاريره سيحصل على جائزة نوبل في الأدب .. هو لا يدرى أنه كاتب وسيحاسبه التاريخ على فشله في إثبات موهبته).

## ( 17 )

لا أحدا كما توقع "جلال" .. كانت "سوزان" البدينة واقفة في الصالة ..

- أين تذهب تلك الكائنات في الظهيرة ؟

شتاء الإسكندرية يوحى بالحذر .. حياها ودخل غرفته في انتظار أن تأتى بقدميها .. تملكه هاجس من كمين لطرده من الغرفة، ولكن سرعان ما طرقت الباب وبيدها طبق أرز باللبن ..

- كل سنة وأنت طيب.

.. وضع الطبق فوق المنضدة .. لازالت واقفة .. ربما تنتظر أن يشكرها مثلا ..إيماءة أخرى ويحتضنها .. شردت عيناها تجاهه .. كانت ترتدي بلوزة حمراء واستريتش أسود .. أول مداخل الخطر.. مراوغات مدبرة .. طاشت أصابعه هنا .. هناك .. رجفة عناق محموم .. بوح هشمته قبلات تصارع الوقت .. نمش خفيف على بشرتها الخمرية .. سالت رائحة البن من جسدها الدافئ .. امرأة لا تحب الثرثرة .. ملت التحرشات الخاطفة، وحانت ساعة الفوران الهادر .. وتحرر الأسرى جماعات وفرادى.

انزلقت من جانبه مبتسمة .. وأغلقت عليه باب الغرفة.

جاءت "سوزان" في الموعد الخطأ .. استبقاها معه لسنوات .. وظل هواء الإسكندرية يطوحه إليها .. يثبت يده المرتعشة على كوب الشاي .. يرد على ترحيب "أم سمير"، و"سوزان" واقفة تتأمله بعينين مندهشتين ..

- اتجوزت يا أستاذ؟
- آه ..
- مبروك ..

انسحبت "سوزان" من الصالة، وتركت "جلال" لثرثرة امرأة عجوز.

كان بوده الهروب من الإجابة، وأن يقطع الطريق إلى محطة الرمل، يقف قليلا أمام البحر، يشعل سيجارة، ويدون آخر تعليقاته على الأحداث، كان بوسعه من تلك المسافة أن يدرك أنه في المكان الخطأ.

السنوات التي مضت، كيف يمكن تجريدها من الأفعال، وضمها إلى أرشيف من الصور، وإشارات بدون تواريخ، وبعضها مبهم كالعادة.

ربما كانت قصيرة تلك الأيام التي قضيتها هناك، الإسكندرية أصبحت جاهزة لإغتيالك، ما عملك الآن يا"جلال"؟ من أين تعيش؟ لماذا تركت وظيفتك في المؤسسة؟ البحر لن يحميك .. والنوارس لن تصنع غيمة فوق رأسك، هذا ما يمكن التفكير فيه، وكان يجب أن تكتبه، هل كنت فلاحاً أجيراً .. صياداً يلقي بشباكه في العاصفة .. درويشا يشطح في ليالي الشك .. عاطلاً يمكث بالساعات في مقهى بشارع جانبي، "بلياتشو" يدور حول نفسه راقصا، وتنفلت من أصابعه فراشات ملونة، ويشيعه الأطفال بالتصفيق، ليوغل في السير، وتتساقط عن وجهه المساحيق، وينصت لذات النغم المنبعث من خلف نافذة مضاءة.

الآن لا صوت ولا رائحة للبحر، تمددت كغريق قذفت به الأمواج إلى شاطئ مهجور، وجسدك المسجى ينطبع فوق الرمال، والمشهد يدور في عينيك بواجهات عمارات الكورنيش، والسوق القديم، وضوء ينبعث من مدخل دارسينما مهجورة، وفضاء لشقائق النعمان، ومقامات الأولياء وعصف مأكول يتساقط كقطع ثلج مشتعل، وفطريات عالقة بجدران البدرومات، هذا ما ابتغته نفسك في الكابوس، وصحوك في مدينة تراك غريبا.

مضت الأيام بـ"جلال" ليعيش في القاهرة، وظهرت عليه أعراض التفلسف، ودون في أوراقه المتفرقة "حياة لا تشبه الإسفنج .." وعبارات قصيرة تنقذ الماضي من العدم .. امرأة تعرضت لإساءة .. أرملة تئن من الشبق

.. شخصية اعتبارية جار عليها الزمن .. أعقاب سجائر في منفضة .. تواريخ مبهمة مثل 1 سبتمبر و 3 يوليو دون ذكر العام.

ورقة مكتوبة في شتاء 2004 تقول أن "جلال" لم يكن موقناً أن فائض القيمة بدأ مع التطور البشري .. أوراق أخرى اختفت أسفل رواية "مدرسة الأزواج" لأندريه جيد .. سماعة الموبايل .. قلم رصاص .. ذبابة هربت من برد الشارع إلى الغرفة .. واستقرت على حافة كوب الشاي، غدا عيد الأم .. طاعة الوالدين عصيان أبدي ..

هذيان ممتع بعد منتصف الليل .. القلم يجري فوق الأوراق .. ظلال الجسد المنهمك في الكتابة تتراقص علي الجدار .. كان خيال الظل بطلا ينفث الدخان في وجه سبايا تصرعهن كوابيس المضاجعات .. هذا الوجود هنا أم هناك ؟ .. اقطع هذا الشارع بسرعة الريح إلى المقابر.

في السابعة أتى الزبال .. لم يكترث كالعادة أن ثمة أوراق ممزقة في كيس أسود، وتفاصيل شاردة مثل الصراع على قضايا لا تحسم إلا بالفناء.

- ماتت بنت الكلب ..

في غروب يوم جمعة .. اصطحبني شقيقها إلى داخل سرادق العزاء .. تقاطع الضوء على جدار بيتها .. شحنت حواسي للانفلات من المشهد الجنائزي .. الوهم باسترداد الماضي ..

- ماذا ستفعل وحدها في مقبرة ؟

تلك اللقطة التي تكررت كثيراً .. عطرها الأنثوي .. ثرثرتها التافهة .. مراوغاتها المستمرة .. الأمر بسيط أنها منذورة لفوضى المشاعر .. ليست بداية طيبة أن أكون قاضيا .. ولكنه شيء كبداية معركة أو نهاية علاقة.

"فريال" مرة أخرى ..

شيء مزعج أن تكتب في هذا الضجيج .. بدأ الصيف وامتدت سهرات "أم حامد" وصديقاتها العجائز حتى الفجر.. أدمنت حرق الأوراق .. نوبات التذكر لإمرأة فقدتها في الشتاء الماضي، ولازالت توحشني .. عابرة ولت مبتسمة .. طوت الطعنة في قلبها الضعيف .. ملثمون يتحركون فوق رصيف قطار سيدي جابر .. عيناها الآن تنطقان باللذة .. حفار القبور اعتاد ذلك مع ملايين الجثث.

هل لاحظ الجيران دخولها من البوابة .. أفكر في استضافتها مرة أخرى .. هنا رقدت "شاهندة" و"دعاء" العانس، وفتاة ارتدت ملابسها وسألتني عن أقرب صيدلية لشراء دواء لصديد القلب.

توقفت "فريال" عن المشي..

- رجلي تعبت .. حرام عليك..

كانت أمامي سنوات أخرى والله أعلم.

أرقتني فكرة التلاشي .. الاختفاء من على وجه الأرض .. نسيان الماضي بأكمله.. للمشهد الجنائزي هيبته .. هل تركت وصاياك؟ .

يا "جلال" كن واثقا في الشتاء القادم .. كن واثقا في أي شيء .. دع الأمان يتسرب إلى قلبك .. لا تخض معارك قذرة .. وهل هناك معارك نبيلة يا مغفل .. هل هناك شرف في الخصومة؟.

على أية حال لا تخشى شيئا .. الخصوم تخطوا الحاجز الرمادي .. ليسوا منا الآن .. الخصوم يا "جلال" .. تذكرهم جيدا .. جيران أوغاد يثيرون ضجة .. امرأة ولت هاربة .. شخص ترغب في قتله.

لو كنت مكانك لأضعت الخيط الرئيسي .. هشمت الإيقاع .. تركت الناي يخالط الأكورديون، ويعزفان نشيج امرأة جاهزة للخيانة .. أطلقت الكمان بصدماته للروح عندما تعانق الخراب .. أتحت العزف المنفرد لقسوة الكونترباص بترانيمه الكاوية .. جهزت الكورس لنشيد الفجيعة..

لا شك إلا شكك .. لا طريق مغاير سوى حنينك إلى الانتقام.

لو كنت مكانك .. لألقيت بها كتبته من النافذة .. ملأت الشوارع بأوراق ملونة بخطوط حمراء وزرقاء وسوداء، وجلست يا مولاي كما خلقتني.. دون اعترافات وفضائح وهزائم.. أحبة فقدتهم في العام الماضي .. أشلاء وهياكل عظمية تثير الضحك.

وعن نفسي كنت أفضل أن تكون البداية أكثر بساطة .. بدء علاقة مع امرأتين في وقت واحد .. الأولى رومانسية إلى درجة البله .. والثانية لا تفرق بين الثواب وخلع شدادتها في حديقة عامة.

كل شيء مدبر بقسوة يا "جلال" .. لا تظن أن أحدا سيهتم بأنك تحتفظ برسائل "فريال"، وحرقت رسائل "أمل" ..

أنت شيطان يا "جلال" .. تكتب عن امرأة تزحف إلى مقصلة .. لاعب شطرنج سيئ الحظ .. صعوبة التنفس في شارع مزدحم بالعربات والناس .. وقت يمر ولا فائدة .. قاتل لا ييأس من رحمة القتيل.

كيف ؟ .. صلي على اللي حيشفع فيك .. أنت مكانك الطبيعي في نعشٍ أنيق ..مكفناً بأوراقك..

هل رأيتهن أيها الغبي ؟ .. لماذا تنادى عليهن الآن ؟ ..لن يأتين مرة ثانية .. انظر ليس أمامك سوى الفراغ والعدم.

## ( 18 )

**ربما هناك في هذا الأفق ستبدأ حياة أخرى مفعمة بالبياض .. هو الآن في المنتصف تماما، ولا يلتفت ورائه بغضب أو حنين .. لا يعير انتباها لرغبة مصور في اصطياد لقطة ماكرة، وظهوره بساق واحدة ..**

**ثمة لقطات غائبة في النيجاتيف المحروق، وأخرى لم تدركها العدسات قرب المسافة إلى المنحنى .. لقطات مشحونة بمعاندة الجاذبية .. انفتاح الحواس على رائحة البحر .. طاقة الأمل في الوصول .. شخص يعرف طريقه جيدا .. لا يهتم بحصار الجدران الرصاصية، ويدرك أنها وشيكة الزوال من المشهد .. حينها سيلقي بمظلته، ويفتح ذراعيه في انتظار ارتطام أخير.**

صرخت "فريال":

- أنت مجنون بتألف الحكاية على مزاجك .. وكمان مطلعني ساقطة.. وإيه قهوة "أبو صدام" اللى داير تلف بيها من بلد لبلد.. بصراحة أنا مش فاهمة حاجة ؟

سحبت "فريال" يدها من قبضتي .. وقفزت داخل الأتوبيس الواقف في محطة عبد المنعم رياض ..

طيلة أربعة أشهر .. كنت أصعد إليها، وتنفرد أمامي بكامل أنوثتها .. أساعدها ليعتدل ظهرها المقوس .. أنهرها عندما تساعدني في ارتداء حذائي .. أواصل معها محاضراتي البليغة عن الأيام والجثث.

انطلق الأتوبيس، واختفت "فريال" بين الركاب .. سأراها ثانية بقلب معطوب .. وتجاعيد موحية بالعقاب.

من الأفضل أن يكون الأمر خدعة .. في أول زيارة لبيتها .. تآلفت مع المكان بسرعة .. أمها الكئيبة التي تهدلت تجاعيدها وتربط معصمها بشاش .. وتختفي بعد مصافحتي .. جدتها ذات البشرة السمراء والبنيان المقاوم للزمن، والتي لا تفارق كنبة الصالة.

كنت أختفي مع "فريال" بين جدران غرفة بها منضدة ومقعدين ومرتبة إسفنج وكراتين معبأة بالملابس، وشريط من الضوء يقطع المسافة بين جسدينا.

"فريال" كتلة اللهب .. المصابة بأملاح زائدة .. كيف تجرؤ على الاعتراف بخطاياها أمامي؟

كان عشقها يتمدد منذراً بموتي الوشيك .. رسائلها المتهتكة .. ركاكة أسلوبها.. قلمها الرصاص .. سطورها في وجه الصفحة وظهرها..

(**حبيبي .. بأحاول أقاوم رغبتي في كتابة خطاب .. يمكن لأنه ورق دشت .. لأني اكتشفت أنه ما عنديش ورق مسطر .. وده معناه أن خطى ها يفضل يطلع وينزل .. وشكل الورقة هيبقي وحش .. مش بس ده السبب كمان .. لأني بقاوم من جوايا الانجراف الشديد في الرومانسية والعودة لأكثر من سبع سنوات لورا .. وكأني هأرجع مراهقة زى زمان .. أو بنت خجولة عبيطة .. ما أعرفش جوايا جزء بيقاوم الانغماس الشديد في تفاصيل رومانسية لأن الخروج منها ها يكون صعب .. ها يكون أشبه بـ .....كمان مش عارفة ها يكون أشبه بإيه**... **حبيبتك "فريال"**).

حرارة يوليو مع امرأة بدينة .. زادت من رغبتي في تلميع حذائي..

- بتحبني؟.

اقترب ماسح الأحذية.. انحنى ليضع الحذاء .. استدار مغمغما بكلمات لم أتبينها..

هرشت "فريال" عنقها بأظافرها الملونة .. بدت خلف ياقة بلوزتها آثار العملية الجراحية .. كان وجهها الخمري المستدير يتناغم مع قصة شعرها القصير..

- اتخانقت مع ماما النهارده ..
- ليه؟
- بسببك..

كان طعم القهوة ماسخا .. رفع "أبو صدام" الأكواب .. انفلتت من تحت شاربه ابتسامة باهتة ..

تحولت فكرتي عن "فريال" إلى تفاصيل شاردة، وبحثت عن شجن يجدد حماسي لتلك العلاقة..

- امسكي نفسك..
- مقدرش عندي أملاح ..

جرت "فريال" إلي الحمام دون أن تسأل عن مكانه .. بدت ببنطلونها الأسود وبلوزتها الحمراء كخزان ماء يتدحرج .. وتفادت مؤخرتها الارتطام بحواف المناضد ..

ارتكنت إلي الجدار في مواجهة الجالسين .. لمحت تلك الابتسامات الباهتة لبعض الفضوليين..

قالت أن حالتها النفسية ساءت بعد الطلاق، وعودتها للعيش في سجن أمها الكئيبة التي لا تكف عن تذكر المرحوم .. وأن شقيقتها الصغرى تمتلك ردفين رائعين .. تمنت لو كانا لها حتى يتناسبان مع صدرها الضخم..

- مش حتساعدنى في الماجستير؟

- أنا جاهز .. بس فين؟

ليس هناك مشكلة أن تنصت لثرثرة امرأة مطلقة .. تتمنى أن ينتهي الوقت معها بسرعة .. أن تفصح عن أسباب علاقتك بها .. ما تريده منها .. ما تريده هي تحديدا .. الماجستير أم نداء الطبيعة ؟

لم أجد وسيلة لتفريغ طاقتي المحتجزة عبر كلامها الممل .. بدأت وصلة شجار خافت .. لعنت اليوم الذي رأيتها فيه، وعدلت عن فكرة دعوتها إلي شقتي .. أشعلت فريال سيجارة .. نفثت دخانها في وجهي .. اتسعت عيناها بالرغبة .. تخدر جسدي في حلم لذيذ .. سأصحو منه علي طرقات الباب.

في الطريق إلي محطة المترو .. كانت الشمس في طريقها للاختفاء.. وقلت للسائرة إلي جواري:

- أنا ماشي..

ارتبكت "فريال" .. تبدلت ملامحها .. تسرب من بنطلونها خيط ماء ساخن، وبيد مرتجفة أخرجت من حقيبتها زجاجة بارفان، ورشت مسرح الجريمة.

أوت "فريال" إلى فراشها .. ليال كثيرة صرعها الأرق .. "فريال" أصبح لها تاريخ، وربما دفعت الثمن من جسدها وأعصابها لأساعدها في انجاز الماجستير .. كانت تلك هي الحجة المقبولة لاستضافتي في منزلها.

ربما كانت ترغب في الثأر لصديقتها العبيطة .. ومساعدتها لزوجها في رسالته .. وبعدها طلقها وتزوج من ناشطة شهيرة.

الحقيقة أنني لم أساعد "فريال" بما فيه الكفاية .. ولا أعلم حتى الآن .. إذا كانت حصلت على الماجستير أم ماتت؟

"حبيبي .. لم أفهم سبب غضبك اليوم .. تفاصيلي تخصني وحدي .. لا أفرضها عليك .. ولا أحن إليها .. علينا أن ننفض من هذه المناقشات العقيمة فوراً .. ولا نجعل بيننا محظورات في الحديث .. عليك أن تشعرني أنك صديقي قبل أن تكون حبيبي .. وأنك قد تتحمل سماعي بحياد .. أو حتى بأحكام .. دون ملل أو غضب .. اترك لنفسك الفرصة للتعرف عليَّ من خلال تاريخي بدلا من أن تكتشفني في ممارساتي معك .. أحبك.. (فريال)".

تلك الأيام لا تدوم .. مع الوقت اعتادت أحلامي التحرر من أخطاء الذاكرة .. كرهت "فريال" بأسنانها اللامعة.. ومغالاتها في التخفي خلف ثياب فضفاضة .. وعهر كعاهة مستديمة ..

أخرجت رسائلها من المظروف الأصفر ..

**"حبيبي.. لا تغضب .. ولا تتمادى في غضبك كما فعلت اليوم .. فأنت في حنانك تكون أجمل .. أخاف الغضب .. ولا أحب أن أمارس معك جو المعارك .. فمعك لن تكون المعركة ممتعة .. سوف تكون كارثية .. لا تسألني لماذا .. فأنا نفسي لا أعرف السبب .. ربما لأنك لا تبدو عنيفا أو شرسا .. أو لأنني مللت المعارك .. وأصبحت كالجندي المتقاعد الذي يبغي التخلص نهائيا من الحروب .. والعيش في حياة وادعة السنوات القليلة المتبقية .. ولا تتخيل أنى لازلت شابة .. أحيانا أشعر أنني هرمت جدا .. وأن حياتي لابد أن تكون قصيرة بما يكفي للألم والعذاب .. أشعر أنني أحتاج إلى هدنة فقط .. لأوقات ممتعة ولذيذة وهادئة ورومانسية .. تزيل هموم السنوات الماضية .. وتعيدني صافية وبريئة..... حبيبتك "فريال" .. ".**

## ( 19 )

**فنان ماكر يراوغنا في لوحته بغموض الوقت .. ليل أم نهار ؟**

**فضاء يثير التوتر على البهاء الكلاسيكي .. واجهات لمنازل خرافية مطفأة وأخرى تصهد بسطوع فتنته .. ريشة تخالط الأسطوري بالواقعي .. يقظة التوهج في المجاز المشتعل بثورته بالضوء .. أشجار مستكينة لخضرتها وأخرى صرعها اللون المجازي.. مجرى مائي تنعكس علي صفحته ظلال الجمال الوحشي، وفي الأفق سحابات تخلت عن بياضها في المدار الناري.**

- الكتابة هنا..

أشار "حسين" إلى رأسه .. انحرفت عيناه في اتجاه ضوء مرتعش فوق صفحة النهر .. سرد حكايته المفضلة عن زميلة دراسته التي رقصت أمامه في غرفة مغلقة .. وانحدر فوق سلمها كالمخلوع توا من السلطة ..

في العشرين دون حكايته عن أرملة في زيارة إلي قبر زوجها، وصرخ:

- أيها العالم انتبه..

ارتد الصدى .. عواء وأنات حيوانات ضالة .. ترهلات المكوث خلف مكتبه المتهالك .. رئتان متفحمتان بدخان سجائر رديئة .. نهجان القفز اليومي ليغلق باب المحل.

كان مفتوناً بدراما الهواتف .. ملك بلا عرش.. بطريرك مولع بتفاصيل ساحرات مشوهات ..بنقص الأعداد المؤهلة للاجتياز الآمن.

اتسع كلام "حسين" خلف باب مغلق .. افترش أرض الزنزانة بورقة جريدة وجلس يدخن .. هجم عليه الليل وبرودة تسللت من قضبان نافذة عالية .. أوصلته رائحة الدخان إلى زرقة بحر ونوارس .. وتسرب اليود إلى

شرايينه .. أغمض عينيه على صورة شخص يشاهد فيلم "الأخوة الأعداء" في سينما "مترو" .. فجأة تضخم وجهه .. جرفه شارع جانبي في غروب صيفي إلي مغامرة خطرة .. اختبأ تحت سرير ساقطة .. أدى واجب العزاء في خادمته المطيعة، ونجا من القتل.

تمتع "حسين" بألقابه .. دونها في دفتر الحسابات .. العارف .. ملك المزلقان .. فاتح السكك لعبور الضحايا والشعراء .. قاهر السرطان في أثداء عشيقاته .. مُودِع الليل بآهات أم كلثوم، ومستقبل الصبح بترانيم فيروز.

لن يصعد "حسين" إلى زميلته الراقصة مرة أخرى .. لن يذهب أو يجيء .. سيطلق لحيته .. يرتدى ترنج ثوت أخضر، ويحكي عن ساحرته المفضلة .. تضغط أصابعه بقسوة على زر مسجل أهدته له فتاة مصابة بعته مغولي .. يدير مؤشر الراديو على البرنامج الموسيقي .. يساوم زبائنه على خلفية موسيقى "كارمينا بورانا" .. يعطف على الفقيرات .. ولا يكترث بذكورية الفقر.

في الخمسين .. حكى أسطورة الطائر الأسود الذي رآه من شرفته في منتصف الليل يحلق فوق النهر.. فتاة دعاها إلي مطعم وأكلت حمامتين كاملتين وطبقين من الأرز المعمر .. امرأة أخرى عضدت من احتماله للفقد أمام بابها المغلق .. نساء خربات خلعن سراويلهن في غرف مؤجرة .. صفقات مدوية هزت جدران مصحة للأورام .. كوابيس مثالية لحبيبته "نوال" حليقة الشعر في ردائها الأبيض، وصلواته في مفترق الطرق.

- ما العمل يا صديقي الآن؟.

لازلت جالساً خلف مكتبك العتيق مهوش الشعر .. تبحلق في شاشة تليفزيون معتمة، وتراكمت أمامك جرائد بالية .. آثار البن في فنجان متسخ .. أعقاب سجائر في منفضة مهشمة .. لقيط ملقى علي عتبة منزلك .. صراخ أرانب بيضاء ذات أنياب شرسة في عنبر مغلق علي أشباحه ..

- هل كان السراب لحم ودم؟.

الإسكندرية .. دخان البايب .. جلسة في كازينو علي البحر .. أدبيات "ماركس وانجلز" .. فلسفة نيتشه .. زميلتك الراقصة .. فتاتك الشرهة .. جولاتك المستعصية على الفهم مع أرملة تخطت الخمسين .. قرص الطعمية المنزلق من بين أصابعك إلى جوف مطلقة ريفية .. السطو على عشيقة تفوهت باسم عشيقها بين أحضانك.

تلك الرزايا دفعته أن يحتمي بظل ساقطات وشهقات بائعة البرتقال، ومست روحه تنهيدة "نوال" .. عانسة السنترال بحاجبيها المرسومين بعناية الرعب من السرطان والعنوسة ..

كان أمامه متسع من الوقت في ضوء القمر .. يحكي ويتذكر ويتحسس حروف اسمه الغائرة في شاهد رخامي .. يقفز هيكله العظمي فوق المقابر، ويتلفت حوله باحثا عن أرملة في زيارة إلى قبر زوجها.

بعد سنوات، ظهر "حسين" أمام مقهى "أبو صدام" .. جذب مقعدا .. نهض الجالسون لمصافحته .. مد "جلال" كفه باستهانة، وحرك البيدق فوق رقعة الشطرنج..

- إيه يا "جلال" أنت عجزت ؟
- لا .. أصل أنا مش معبرك..

انطلقت ضحكاتهم واهتزت رؤوسهم المشتعلة بالشيب، وكتم "جلال" ألم مفاصله بابتسامة باهتة .

كانت تمطر حين اجتازت نوال الباب الزجاجي ..

انتبه "حسين" على طرقات خفيفة .. خلع نظارته .. اختلطت في عينيه ومضات عينيها الواسعتين .. ترهلات جسدها خلف زرقة ثوبها المبتل .. نهض من أمام شاشة الكمبيوتر..

- شاي ؟
- شاي..

لامس وجهها المبلل بأصابعه .. لفحه عطرها الأنثوي الممزوج برائحة المطر .. أغمضت عينيها وصدته بدلال .. أشعل سيجارة .. ووضع البراد فوق شعلة البوتاجاز ..

- مالك .. ساكته ليه ؟
- أبدا ..

وارت "نوال" ارتباكها بتصفح مجلة فوق المكتب .. فكرت متى تنتهي تلك المراوغات .. انتبهت على سعاله المتقطع ..

- أنت وعدتني تخف الدخان..

غمره دفء صوتها بنشوة .. مد يده إليها بكوب الشاي ..

- رحتى للدكتور ؟.
- قال خليكى ماشيه على العلاج؟.
- بس أنت جميلة النهارده..
- بجد .. يعنى كنت وحشه قبل كده..

وضعت "نوال" كوب الشاي فوق المكتب .. انفجرت باكية..

- ليه كده ؟
- خايفة .. المرض تعبنى قوى ..

لم ينطق "حسين" .. احتضنها وداعب شعرها المحنى .. انفلتت منه، وحملت حقيبتها ..

- لسه بدرى ..

- لا .. أنا تأخرت..
- استنى حاوصلك ..

obeikandl.com

## ( 20 )

كان الأمر بسيطا .. والخارج ضجيج متصل .. شخص مثل "جلال" لا يكترث ويرتب أوراقه .. يكتب عن فتاة النافذة لـ"سلفادور دالي" .. يدخن .. يطارد بورص في المطبخ .. ينزح مياه المجارى خارج الشقة .. يعلق نور الفجر على مقبض النافذة .. يبحث عن هويته وحافظة نقوده .. يهش الذباب عن أوراقه .. يحترس من الفئران ..

يقسو أحيانا على نفسه بالكشف عن أخطائه .. يطلق الرصاص على أعدائه من مسدس كاتم للصوت .. يشرب الشاي ويدخن في بوفيه القطار .. شخص غادر مقاعده في جميع المؤسسات .. وينتظر رصاصة الرحمة ..

يلعب دور القاضي في مسرحية "الاستثناء والقاعدة" لـ"برتولد بريخت" والتي ترجمها الراحل "د. عبد الغفار مكاوي" .. حفظ "جلال عن ظهر قلب حيثيات الحكم الجائر..

"مثل هذا يحدث في دوائر البوليس .. فأنت ترى عساكر البوليس يطلقون الرصاص على جمهور من المتظاهرين .. على قوم لاشك في أنهم مسالمون .. فما الذي يجعلهم يطلقون عليهم الرصاص؟ ..لماذا يفتكون بهم ؟ ..الجواب بسيط ..ذلك لأنهم لا يستطيعون أن يفسروا لماذا لا يفتك بهم هؤلاء المتظاهرين فور رؤيتهم ..فإذا أطلقوا عليهم الرصاص ..فذلك لأنهم خائفون ..هذا هو كل شيء .. وشعورهم بالخوف هو الذي يؤكد سلامة فهمهم .. لهذا يتعذر على هذا التاجر أن يدرك أن هذا الأجير كان بمثابة الاستثناء من القاعدة.."

تلك الليلة فكر في اقتحام الغرفة المغلقة .. تسارعت ضربات قلبه، وفي الصالة كان الشبح يدخن والبنت تدور حوله .. هل هما شبحين للرجل وابنته

اللذان سكنا في غرفة بشقة "سبورتنج"، وفصله عنهما جدار من الخشب .. فقد أرادت "أم سمير" أن تستثمر اتساع الغرفة، ولكن لماذا يقيمان معه الآن في شقة أرضية بالقاهرة؟.

دائما هناك أسئلة، وهذا طبيعي لمؤلف مات دون أن يعرف سر الشبحين.

كان ذلك كافيا لإزاحة تلك الأفكار .. بالفعل فكرت أن أقتله .. هذا المخرف الذي ينسج من خياله أحداثا لم تقع، ويسرد حكايات شائهة عن أشخاص لا يستحقون الإساءة.

المشكلة في التوقيت أم الفكرة أم ترتيب الأحداث .. ربما في هذا كله .. الآن في شقة بالطابق الأرضي .. السجائر أوشكت على النفاذ .. لا يوجد سكر ..المجاري طفحت وأنزحها خارج الشقة ..قدمي اليسرى متورمة من جراء حادث موتوسيكل .. لم أكمل مشاهدة فيلم " زد " لبطء الانترنت، وفشلت في تنزيل برنامج تحميل الأفلام.

المشكلة أن عمال المجاري اختفوا من مبنى الصرف الصحي .. المشكلة أن صوت موتور الماء يفزعني .. فقط لأنه يعني حصة إضافية من نزح الماء .. أحد الجيران رآني وأنا أدفع الماء خارج الشقة

- أنت نسيت الموتور مفتوح؟.

إدانة جاهزة تبرئ ساحة بقية الجيران..

- أنا لا استخدم الموتور مطلقا..

المشكلة في التوقيت وعدم كفاية الأدلة..

يبدو المشهد ناقصاً بدون ذكر خطاب وجدته فوق عداد الكهرباء .. مكتوب عليه عاجل وسري للغاية .. بحثت عن إسم المرسل إليه على الأبواب المغلقة، وصعدت إلي الطابق الأخير .. فتح رجل فوق الستين .. تناول مني المظروف بأصابع مرتعشة .. شكرني في ارتياب وأغلق الباب.

بعد أيام اجتزت شارع الهرم إلى رصيف ويمبي .. لمحتهم واقفين في تربص .. وبعضهم يحمل السنج والمطاوي وزجاجات المولوتوف ..

ربما يجذبهم الضوء كالفراشات الملسوعة بالجوع والشهوة .. يتلصصون كالجرذان والسحالي من جحورهم .. يعوضون نقص الكالسيوم وفقر الدم بالأرق المزمن .. يهربون من كوابيسهم إلي يقظة الشر ..

هكذا يسعون في الليل .. يبحثون عن البطولة .. فردية الأمل .. يثرثرون أسفل المصابيح بذاكرة أتلفها سوء التغذية.. يفتعلون المعارك أمام المقاهي وفي الحواري الضيقة..

أرواح منسية .. عيون تتصنع الحكمة .. تلوذ بهاوية البدرومات والمنازل المعلقة فوق الصخور ، ويزحفون دوما من أطراف المدينة إلى شوارع النبلاء .. نساء ورجال وأطفال يفترشون الأرصفة ببضائعهم .. يفتشون بعيونهم عن مثواهم الأخير ..

كم ليلة باتوا جوعى، واتهمهم العابرون بالكسل؟.

كنت قد أوغلت في ظلمة شارع جانبي .. رأيت جيوشا من الجياع يتقاتلون على جثة أحدهم، وتمنيت النجاة من موت عبثي.

لمحته قادما .. وتعجبت أن "حسين" لا زال على قيد الحياة .. كان ممتقع الوجه.. وشعره مهوشا، ويرتدى معطفا متهالكا .. صافحني مبتسما .. ولم أعرف كيف سأصرفه .. أشعل سيجارة ومشى إلى جانبي، وقال دون أن ينظر ناحيتي:

- فكرت أكتب سيناريو إيه رأيك؟ ..

لم ينتظر إجابتي، وقفز فوق أحد المقابر، وأشار إلى رأسه قائلا:

- الكتابة هنا يا "جلال"..

كدت أن أصطدم بأحد المارة، وأسرعت خطواتي إلى المنزل، مرت أمامي وجوههم، فليس بوسع أحد أن يمنع الموتى عن معابثة أرواحنا بالألم ..

obeikandl.com

## ( 21 )

انتزعت وصلة الجرس

- لماذا لا أودع أعدائي بثقة .. الزبال ومحصل الكهرباء والغاز..؟.

اشتد الطرق على الباب .. أشياء أخرى ستحدث .. صراع حول قضايا لا تحسم إلا بالفناء .. لم أكن موقنا أن فائض القيمة بدأ مع التطور البشرى، وتراكمت أوهامي التي تربت على الفضائح، وظنه القرين نوعاً من الرحيل الفردى .. دون شهود على تاريخ يخدعني بالحكمة والأمل الفاسد.

بدت التواريخ متضاربة كأخطاء مطبعية "لم يثبت ما تدعيه من توجيه أي لوم أو اضطهاد من قبل رؤسائك" تداخلات رمزية عن انسحاب المخبرين من مقهى "أبو صدام"، واصطفافهم في تشريفة وداع تليق بمناضل سابق.

أشياء من هذا القبيل عززت فكرة "جلال" عن الاستقلال .. بالطبع هناك أشياء أخرى ستؤرخ بعد تلك السنوات.

في ليلة من صيف 2013 امتد صف طويل من العربات ..شباب يهتفون من فوق منصة أمام البنزينة: "ارحل .. ارحل .. " ..

جلست في مقهى "أبوصدام" أتابع الزحام .. الناس هجت من البيوت .. هبت نسمة باردة مع العابرين، وتسلل إلى قلبي اطمئنان يخالطه الحذر.

أليس لها نصيب من التورتة؟ .. يالجحودك يا "جلال" .. أوقعتك المصادفة في حيرة .. العالقة هناك فوق تل بعيد .. ظهرت فجأة .. داؤك النسيان لأهم تفاصيل المسرحية .. لا تبدو مرتاحاً لظهورها مرة أخرى .. "فاطيما" بطلة العام الثالث من إقامتك بالقاهرة .. صفق لها الجمهور قدر استطاعته .. واعتزلت تمثيل الأدوار العاطفية .. كانت موهوبة في عذريتها .. رقيقة وخجلى

.. يتورد وجهها كلما دخلت إلى المؤسسة .. وتحلق في خرافاتها عن الرباط المقدس .. كل ما أزعجك أن تحبك فتاة نحيلة، ويبح صوتها من الهتاف في المظاهرات .. رسائلها ضاعت .. ربما حرقتها سهوا مع أوراق أخرى.

انتبه يا "جلال" .. "فاطيما" عادت وستنتقم ..

كانت في السنة النهائية بكلية الحقوق .. تحديدا في عام انتفاضة الحجارة، وشاركت في مظاهرات التنديد بالعدو الصهيوني، والتحقت بالعمل في المؤسسة.

لا شك أنها ليست جميلة ولا تميل لإثبات ذلك .. عيناها مشحونتان بالغضب كأنها تعرضت للإساءة منذ قليل .. يتوتر صوتها وترتجف عظامها .. كلامها مضطرب وحالم ..

أخبرتني كمراهقة أنها تحب "يوسف إدريس" و"محمود درويش" و"أمل دنقل"، وعلمت أنها تكره أبيها الذي تتلبسه العفاريت، ويأتي بأفعال غريبة.

يبس الأخضر يا "فاطيما" .. صار هشيماً ومنازلا للفقراء ومعاركا بلا ذاكرة..

في مقهى "أبو صدام" جلست مع "فاطيما" .. كانت ترتدي بنطلون جينز، وبوت يصل إلى ركبتيها، وبلوزة تنتهي على حواف الحزام الأبيض، وعادة ما تنشلح عن بداية عمودها الفقري.

ما الذي دعاه إلى تذكرها في تلك الأوقات العصيبة .. "فاطيما" الرومانسية الحالمة بالثورة .. شعرها الأسود المفلفل بقصته القصيرة .. إخفاق الوصول إليها في قلب المظاهرات العارمة التى اجتاحت البلاد.

في هذا الوقت كان "جلال" يكبرها بعشرين عاما .. وغادرت "فاطيما" المسرح قبل المشهد الأخير .. وبعد أعوام قابلها مصادفة في مقهى "أبوصدام"

.. كانت متدثرة بكوفية حمراء .. تلك المرة لمعت عيناها بالحنين .. ارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتيها الشهيتين .. أخذت رقم هاتفه .. صافحته وتركت المقهى مسرعة.

obeikandl.com

## ( 22 )

**في الضباب ينمو الغموض والحذر .. بداية ليل .. قيامة فجر .. أشباح في بياض مشتعل .. سور يحتجز أسراره .. رجل وامرأة في طريقهما إلى لون الحريق .. زرقة البحر .. زفرات الندى في بهجة الضوء .. وإيقاع خطوهما يرن فوق الإسفلت.**

اعترضت "فريال" ..

- ممكن تقرر بعيد عنى..
- أنتِ بنت كلب أساساً..

تكهرب الجو ، وتساقطت دموعها .. الأمور لا تخلو من مهازل حقيقية .. مثل أن تتوب امرأة فجأة، وبدافع الأرق تذهب أخرى إلى مصائر العاهرات .. كانت فكرة جيدة أن أصطحب "فريال" إلى هذا المكان البعيد .. وجدتها فرصة لسؤالها عن بعض الأمور، وانتظرت كلامها في كازينو يطل على البحر..

- عايز تعرف إيه ؟.

ساعدها على البوح .. رائحة اليود .. رشفات البيرة .. أنفاس الدخان، وتدفقت كأنها تنتقم .. ليست المرة الأولى .. لعله الشك .. فقدان الثقة في الأنثى .. يقين العلاقات المبتورة .. شكل الاعتراف .. لا تقاطع أنثى .. أنصت إليها جيدا .. دعها تثرثر كما تشاء .. ستقول كل شيء .. عدا من تحب ومن تكره فعلا .. متى ترغب في قتلك .. الارتماء في أحضانك..

عادت "فريال" من الحمام .. خطفت حقيبتها في عصبية..

- عاوزه أروح حالا ..

مشينا صامتين .. كانت تركل الرمال بقدمها، وتركتني أفكر في هول ما قالت، وأدركت أنني مجرم خائب يستخلص الحكمة من جبروت زائف.

وصلت "فريال" إلى الإسكندرية .. قالت كل ما في قلبها إلى شيخ جالس على رصيف مجاور لجامع المرسي أبو العباس .. تحلق حولها متسولون ومجاذيب .. اندلع جسدها المترهل بالشطح .. انفرط من حقيبتها بحر من رمال وعشاق خائبين.

أمام الضريح .. سالت دموعها .. هاج جسدها المشحون بالخطايا .. بدت لسائق التاكسي امرأة متاحة .. ظلا صامتين، وعيناه تراقباها في المرآة، وطوال الطريق إلى سيدي بشر سعرتها رائحة اليود برغبة جارفة في التدخين .. انفلتت منها ابتسامة وفردت صدرها .. أطلقت تنهيدة لزرقة البحر في صباح شتوي .. فى تلك اللحظة تجرأ السائق، ومد يده إليها بسيجارة.

**"حبيبي ... هذا ثالث أو رابع خطاب أكتبه إليك .. لا أعلم لماذا تنتابني رغبة في البكاء عندما أكتب خطاباً إليك .. هذا مؤشر سيئ جدا بالنسبة لي .. قد يجعلني أخاف الاقتراب منك .. فأنا لا أرغب في الارتباط بحائط مبكى .. ولا أرغب في كشف ضعفي أمامك .. عليك أن تعلم ذلك جيدا .. فأنا مللت من كشف عوراتي وانكساراتي ..وقررت أن أجرب شيئاً جديدا .. هو كشف قوتي وتماسكي .. وثق إذا رغبت يوما في البكاء بين أحضانك .. سيكون ذلك إنذاراً بالابتعاد .. لا أرغب في إغضابك لأن جزء ليس بقليل في داخلي يتشبث بك .. أوشكت على إدمانك .. ولسه بأشعر إني سأنجح معك في علاقة جميلة .. حبيبتك (فريال)".**

اعترفت "فريال" بما فعلته بالأمس .. ارتجف كوب الماء في يدها .. بدت شفتاها الغليظتان متناغمتان مع بدانتها، وقيدت رغبتها بالبوح أثناء مرور كلب بجوار مقهى "أبو صدام" ..في تلك اللحظة لمعت عيناها وهمست:

- اللقاء ده جه في وقته تماما..

كانت ميتة .. حين نهضت لأحاسب الجرسون .. حملت جثتها الثقيلة، ومضيت بها إلي محطة عبد المنعم رياض.

في تلك الليلة كتب "جلال" رسالته اليتيمة إلى "فريال"، ونسى تفاصيلها المملة .. كلهن "فريال" .. لا فرق بينهن .. "فريال" حبيبته الأولى .. "فريال" طليقته .. "فريال" العاهرة .. "فريال" المصابة بعقدة اليكترا .. "فريال" التي أحبها .. "فريال" التي كرهها .. "فريال" التي أحبته .. "فريال" التي كرهته .. "فريال" التي لا تحب أحدا غير نفسها.

" قالت لقد أكرى بك الدهر بعدنا..

فقلت معاذ الله بل أنتِ لا الدهر".

من الآن حتى نهاية السهرة .. هناك وقت يضيعه في التدخين .. شرب الشاي .. بعثرة قشر الفول السوداني .. الاستماع إلى أم كلثوم .. هناك وقت يضيعه في الحنين.

obeikandl.com

## ( 23 )

تربعت "أم ريري" فوق الكنبة .. نداهة طاردته منذ وصوله إلى الإسكندرية .. أرملة بيضاء بدينة .. عيناها منتفختان كما اشتهى .. شفتاها الغليظتان تمتصان دخان سيجارة .. معصوبة الرأس بمنديل قرمزي .. تترجرج في الشارع بجلباب أسود شفاف.

كانت تأتى كل مساء إلى "أم سمير" .. تجلس في الصالة مشلوحة الساقين، وتتابعني بعينيها عند خروجي من الغرفة.

غالبا ما تدفعني ثرثرتها المزعجة إلى مغادرة السكن .. كنت أعلم أنها تُسكِن الطلبة في شقتها، ولكنى خشيت من أبي، وفضلت الإقامة عند امرأة عجوز تعيش مع ابنها وزوجته، وتبيت في الصالة.

تلك المرة استوقفتني "أم ريري":

- تدينى كام سنة يا أستاذ "جلال" ؟.
- 20 سنة ..

أطلقت المرأة ضحكة هستيرية عصفت بتوازني .. بينما رجفت العجوز:

- سيبي الجدع في حاله .. مش حِملك..

كان "أبو صدام" جالسا مع الجرسون يتناولان الإفطار..

- اتفضل يا أستاذ ..

شكرته وانشغلت بتصفح الجريدة..

انهال غضب "أبو صدام" على الحكومة والأيام البني..

وقال للجرسون: حتقولي تانى العيال واشتغالة العواطف ..

- يعنى إيه .. أطلقها؟.

- وأجوزك من بكره ..
- يا با مينفعش .. فيه مؤخر وقايمه ..
- خلاص يبقى أنت راجل لا مؤاخذه .. وما تشتكيش تانى ..

صحوت على رغبة جارفة في مهاتفة "فريال" .. فسرت ذلك بسوء الظن الذي في محله تماما ..

هكذا عقدنا اتفاقية حرب باردة .. وياويل من يخرقها .. قوتان ضاربتان والتكافؤ سيجعلها سلسلة من المعارك .. ليس هناك أية نية للمصالحة .. الخصومة بدأت عبر الهاتف .. كما يقتضي برجل وامرأة على مشارف الخريف ..

لم تكن المبادرة الأولى والثانية من جانبي سوى جس نبض لقوة خصمي .. فقد ساءني أن أعاملها باحترام دون إحداث خدوش طفيفة في جمجمتها الإفتراضية .. فهي تظن أن العاصفة ليست مقنعة لشروطها .. والمراوغة تنتمي لعصور منقرضة ..

الأمر في تلك الحالة سيمهد لانقطاع التيار إلا إذا حدثت معجزة، الإنتظار واجب أخلاقي، وكلانا لن يفهم سوى لغته .. العصافير وبعض الكائنات حلت المعضلة .. أنا لست بحاجة قصوى للتنازلات .. هي ليست بحاجة إلى كائن مستبد .. فلتكن الكراهية عنوانا رئيسيا .. ولألعب أنا دور شيطان منتقم، وهذا أفضل من صمت الهواتف .. لعبة .. معركة .. تاريخ مزمن كعاهة مستديمة .. وصفحات يسطرها مؤرخ لا يعرف الحياد، وربما قررنا في نفس واحد الإنسحاب من المعركة.

**رجل وامرأة يحتميان بمظلتين في طريق النجاة، والمطر لا يطفئ الحرائق .. تخالط قطراته حنين الأرواح إلى الدفء .. مصباح يشتعل بدفء أنثى يسيل منها الجمر تحت مظلة بيضاء، ومصباح آخر يخبو بذاكرة النار فوق الأسفلت.**

**لا أدري لم تطاردني تلك اللوحات لفنان لا أعرفه ..**

**ربما رأيت في أحلامي الشتوية تلك الشوارع المبتلة بماء المطر .. انعكاس الضوء على الإسفلت .. المنازل العتيقة حاوية الدفء والأسرار .. قد تتحول اللوحة في لحظة إلى صورة فوتوغرافية ملونة، فالفنان يحاكى الواقع ويتجلى إبداعه في مهارة التناسق بين عناصر لوحته .. تلك السكينة والسلام الداخلي الذي يصنعه مطر هادئ، ولكن الفنان يغمس فرشاته في اللون .. ليرسم شخصا يحتمي بمظلة .. ربما كان أنا أو أنت أو هو .. ربما كان في طريقه إلي بيته أو حبيبته .. شخص قد يعرف المكان جيدا .. أو عائدا إلى منزل من تلك المنازل في الامتداد البعيد للمشهد الأسطوري.**

obeikandl.com

## ( 24 )

قلت لـ"جلال": أغرب عن وجهي بتفاصيلك، أنت الباقي إذن بعد كل هذه السنين، وحين نجلس ونشعل سجائرنا، كأننا ديناصورين لا نمت بصلة إلى هذا العالم من حولنا، يتطاير الأسى من عينيك، فخذ حذرك مني، ولا تفتش في قلبي، وأعلم أنني لم أحب "فريال" مثلك.

الأوراق أمامك، وأتحداك إن فهمت شيئا، كل النساء تدلين بأفخاذهن ورؤوسهن وبطونهن، وصنعن طابورا فوق رصيف المحطة، فلا تشغل بالك بهذيان الزاهد في دنياكم، ولن تستطيع أن تمحو سطراً واحدا مما كتب عن الخراب والفاسدين والعالقين والعالقات في الفقر، الأغبياء والضالين، والعقوبات التي باتت جوعى، ورائحة الفل، وعادم العربات، والكلام المؤجل..

يالثأرك التافه، بعد كل السنوات التي ضاعت، انظر لملامحك أيها المكابر، هم أبناء جلدتك الذين نصبوا لك الكمائن، وأنت أدرى الناس بهم، لم تستقم أيها الغافل، ولم تشرد بأفعالك بعيدا عن مناطحتهم، سيظلون الخصوم دائما، وأنت.. من أنت؟.

المكان مناسب جدا يا "جلال"، جدران عالية، ونافذة ذات قضبان، وحوض وحمام، وفراش وثير، وراديو مفتوح على محطة الأغاني، تلك العدسات فوق الكوميدينو، هل ترى ماتراه أم تحدق في العدم؟، الصيف على الأبواب، وأمامك سنوات أخرى، والله أعلم.

لسنا في حاجة لنعرف ارتباطك الحميمي بحديقة "الخالدين"، ووقوفك أمام تمثال "سيد درويش" بالذات، وجلساتك المنتظمة في تريانون مثلا، وانشلاح بلوزة السيدة في أتينيوس، وتلصصك على ظهرها العاري، وسر تدخينك للبايب في مدخل سينما "مترو"، ورحلتك اليومية في "الترام" من "سبورتنج" إلى محطة "الرمل"، فلسنا في رحلة سياحية، بل قضية وعليك أن تتكلم..

- مش رايح الشغل يامه ..

قالها "جلال" بهدوء، وجذب الغطاء على وجهه، واستسلم للنوم مرة أخرى، وأدرك أنه بعد تلك السنوات التي مضت، لا زال ينادي على أمه، ويطرد دخان سجائره من النافذة، قبل عودة أبيه في المساء، ويضع كنكة القهوة فوق السبرتاية، ويصيبه الدوار عندما يحملق في عينيي "فريال" المنتفختين، ويخبئ صورتها في محفظته.

ذاكرتك الضعيفة لا تسعفك بمزيد من التفاصيل، لعلهم يعرفون يوم مولدك ومؤهلك الدراسي، والأعمال التي تنقلت بينها، وكل ذلك موجود في ملفك بالمؤسسة، ولم يبق سوى غبار سجائرك، ليتحفظوا عليه، وربما يعاقبوك بتناول قرفة بالحليب مع "فريال" في مقهى شعبي، أو يطلقون اسمك على أحد الشوارع، وينتهي الأمر.

الإعترافات تتدلى على طرف لسانك طواعية، دون تهديد أوتعذيب، النهارد ده كام في الشهر؟، البطاقة معاك؟، خلاص اركب القطر وسافر، متقطعش تذكرة من الشباك، واقعد في البوفيه لغاية ما تيجي "فريال"، دخن واشرب نسكافيه بالحليب، وتصفح الجريدة، بص على الناس حواليك، واتحرك قبل

الميعاد بربع ساعة، مش مهم أنت لابس إيه؟، ومعاك شنطة ولا إيدك فاضية، على فكرة "فريال" ماتت، ومش حتشوفها تاني..

obeikandl.com

## ( 25 )

وصلت في ساعة متأخرة من الليل .. أشرت للسائق ناحية البيت ..

كان المكان أسطوريا .. رأيت منازلا معلقة فوق جبال .. أشباحا هائمة في الطرقات .. دخانا أبيض ينبعث من نوافذ بعيدة.

لفحني هواء معبق برائحة اليود .. مشيت منتشيا فوق رصيف مبلل بقطرات المطر .. وأدركت أنني قريب من البحر.

صعدت درجات رخامية .. استقبلتني "فريال" بثوب العرس .. وعلى الفور احتضنتني .. كانت الأوراق التي كتبتها بالأمس مبعثرة فوق منضدة دائرية، ولمحت فوق الكنبة .. سيدة مهوشة الشعر .. تلتهم طبق أرز باللبن..

- مين ده يا "فريال"؟.
- ده واحد ميت يا جدتي ..

تخلصت الليلة من أوراق أخرى، ولكن الأكياس لا زالت مليئة بأشلائهم، وتمكنت من مد جسر بين قلعتي "صلاح الدين" و"قايتباي"، يبدأ من سور مجرى العيون وينتهي أمام البحر .. جسر لا يعبره سوى من خرجوا لتوهم من أرحام أمهاتهم.

أخذني الحماس وكتبت تفاصيل شاردة عن "فريال" التي تنهدت في ارتياح لأن القرصان أطلق سراح الفتاة الحالمة، ولم يبق سوى خمس صفحات من الرواية .. ستكملها أثناء عودتها في الترام من محطة الرمل إلى سيدي بشر.

كان عليها أن ترتشف آخر قطرة في زجاجة البراندي، وتتحسس تضخمات جسدها برفق، وتوفر طاقتها في كتابة الرسائل لإتمام رسالة الماجستير، وقطع علاقتها نهائيا بالمدعو "جلال".

تلك اللقطة استقرت في ذاكرتي أثناء تقليبي للسكر في كوب الشاي، وتهويشي للبورص فوق عداد الغاز .. حملت الكوب ورأيت الشبحين في الصالة .. ابتسمت:

- إيه رأيكم يا ولاد الكلب .. أبدأ بقصة الجسر أم أقتل "فريال" الليلة؟.

كان الشبحان منهمكان في الكلام .. ويشوحان بأيديهما.. ولم يسمعا شيئا.

الحمد لله .. هذا أكثر مما توقعت .. تخيل يا "جلال" أن رسائل "فريال" اختفت .. أشياء أخرى تظهر ثم تختفي .. عفاريت تعبث بمحتويات الغرفة، وتسلط فئران ضخمة لهجوم كاسح من نافذة المطبخ، وتبدأ الحرب بمناورات وكر وفر، وتحتمي الكائنات الرمادية بماسورة الغاز ، ولا سبيل سوي صنع الفخاخ المسممة ..

- إلى متى يا صديقي سيظل الحال على ما هو عليه؟.

أسير على بركة المولى .. أتبع خطواتي في شارع يفضي إلي بحر .. اشتري الجريدة .. علبة السجائر .. أجلس في مقهى "أبو صدام" ..أطلب شايا، وأبدأ في التصفح العاجل .. أقرأ العناوين التي في الغالب تثير الفزع .. ارتشف أول رشفة .. أنحى الصحيفة جانبا .. أشعل سيجارة .. أفكر في بعض الموتى .. أحبائي الغائبين .. لا اكترث بالوقت .. فقط انتظر النهار لأعود مجددا إلي مسكني القريب، ومعي بعض الذكريات.

في الفجر، اندلقت الأشباح من الأكياس المتراصة في الصالة .. فتحوا باب القبو وانطلقوا في الشوارع يثيرون الصخب، وبقى الشبحان على حالهما ينظران إلى "جلال" الجالس إلى منضدة دائرية، وأمامه الأوراق المبعثرة ويهذي بكلمات غير مفهومة.

**هدوء حذر .. ترقب لتمام الوصول إلى هناك .. أصداء بعيدة لصلصلة سيوف .. طلقة رصاصة طائشة .. عواء ذئب .. أنات ناي .. زخات مطر .. شهقة الروح في لحظة الخلاص .. هكذا كان العالم صافياً وملوناً كما أراه على نحو غائم في أحلامي .. سأعبر تلك البوابة إلى برزخ نوراني، وأمضي في غموض الناجين من دروب متعرجة.**

تساقطت في الحوض الأصباغ التى لطخت وجهه، ونظر إلى المرآة عله يعثر على ملامحه .. اختفت الشوارع والبيوت والنوافذ والأبواب .. انتهى من حزم حقائبه، ورأى الشبحين قبل خروجه من القبو، ولأول مرة كانا يبتسمان ويلوحان له قبل أن يغلق عليهما الباب.

obeikandl.com